سلام الله عليكم من بانجول

رحلتي إلى دولة جامبيا

سلام الله عليكم من بانجول

رحلتي إلى دولة جامبيا صيف ١٩٨٧م

د. إبراهيم عوض

منشورات إبراهيم عوض

القاهرة

١٤٤٤هـ ـ ٢٠٢٢م

زوجتى العزيزة ويمنى وعلاء الدين

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وبعد:

اليوم السبت ١٩٨٧/٧/١٨، وقد وصلتُ بانجول عاصمة جامبيا ظهر اليوم، أى بعد نحو إحدى وثلاثين ساعة. وقد وصلت هنا الثانية عشرة ظهرا، وهذا يعادل عندكم الثالثة بعد الظهر. لقد توقفت بنا الطائرة الإيطالية فى روما أكثر من سبع ساعات، وفى الدار البيضاء أقل قليلا من ساعة، ثم غادرناها إلى داكار عاصمة السنغال فى منتصف الليل بتوقيت السنغال. وفى الصباح ركبنا طائرة نيجيرية قطعت بنا المسافة بين داكار وبانجول فى نحو نصف ساعة، وكان طيرانها كله فوق المحيط الأطلنطي.

الطائرة الإيطالية غادرت القاهرة وروما فى الميعاد المحدد بالدقيقة. أما الطائرة النيجيرية فقد أخبرونى فى القاهرة أنها ستقلع من داكار فى الثامنة صباح اليوم، غير أن موظف الاستقبال فى الفندق الذى نزلت به فى هذه العاصمة قال إن الميعاد المسجل على لوحة الإقلاع فى المطار (والفندق ملاصق له، ولذلك فاللوحة ترى من داخل الفندق) هو السابعة. أما الواقع فقد أقلعت بنا الطائرة فى نحو العاشرة والربع، بعدما كتبت موظفة التذاكر فى المطار أنه العاشرة، برغم أنها قالت لى شفويا إنه التاسعة والنصف. ولما أبديت هذه الملاحظة لشاب نيجيرى تقابلت معه فى المطار قال إن الطيران الإفريقى كله بهذه الطريقة.

ومع ذلك فلابد من القول إن إقلاع الطائرة النيجيرية وهبوطها كان لطيفا حتى إنى لم أكد أحس به. وهى شهادة للطيار النيجيرى.وربما كان السبب أن الطائرة صغيرة (على عكس الطائرة الإيطالية العملاقة) وأنها لم تحلق على ارتفاع عال جدا لأنى كنت أرى أمواج المحيط بوضوح، ولكن مصغرة جدا، بحيث بدا سطح الماء كأنه تغضنات طبق من المهلبية المصبوبة لتوها. وكانت السيارات والسفن كأنها لُعَبُ علاء الدين الخضراء التى اشتريناها له من بنها. أما الناس فقد كان من المستحيل رؤيتهم. وكانت الطرق تبدو كسطور خُطَّتْ بقلم عريض، والأشجار كعيدان كبريت مكبرة بعض الشئ. ولما اقتربت الطائرة من الهبوط فى مطار بانجول أخذت أرى فى عرض المحيط نقطا بيضاء تتفجر واحدة وراء الأخرى، وخمنت أن تكون الدلافين.

فى الطائرة النيجيرية لم يقدموا لنا أى شيء لا طعاما ولا شرابا. وربما كان السبب أنى غادرتها سريعا، وأنهم سيقدمون الفَطُور والغَدَاء لمن سيواصلون السفر. أما فى الطائرة الإيطالية فقد قدموا لنا الفَطُور، ثم

هبطنا فى روما. وهناك أعطانى موظف التذاكر فى شركة أليتاليا كوبونا أتناول به الغَدَاء فى مطعم المطار. وعندما استأنفنا الطيران قدموا لنا الطعام مرة أخرى. وبعد الإقلاع من الدار البيضاء (التى وقفت فيها الطائرة نحو ساعة ينزل فيها من ينزل ويركب من يركب، ولم ننزل نحن الذين سنواصل السفر) قدموا لنا عشاء، لكنى كنت قد بشمتُ فشكرت السفرجى واكتفيت ببعض الكوكاكولا والماء.

وقد كان طعام الطائرة الإيطالية لذيذا وأكثر من كاف. وكان ألذ منه طعام المطعم فى مطار روما: مكرونة إسباجتى، وعدة قطع مستديرة كبيرة من اللحم، وتفاحة كبيرة من أجمل أنواع التفاح المستورد الذى كنا نأكله فى بريطانية، وجبن رومى، وسلطة، وصفيحة كوكاكولا (علبة من الصفيح طبعا لا صفيحة من التى يباع عندنا فيها الجاز)، وثلاثة أرغفة من الخبز (أقول: "أرغفة" تجاوزا، فهى مثل الخبز المسمى عندنا "كايزر" ولكن شتان، فهذا أنظف وأشهى وأشد تماسكا). وعندما دخلت المطعم جلست بعد أن أريت أول عامل قابلته الكوبون الذى معى، غير أنْ قد مر بعض الوقت من غير أن يهبّ لخدمتى أحد. وحانت منى نحو الفاترينات التى يقف وراءها السفرجية، فأشار إلىَّ الرجل الذى هناك أنْ "تعال"، فذهبت، فكلمنى بالإيطالية فلم أفهم، إلا أن المرأة التى معه كانت أسرع بديهة منه، إذ أمسكت بصينية وأشارت إلى المناديل الورقية والملاعق والشوك والسكاكين بما يفيد أن "خذ واحدا (أو واحدة) من كل شيء"، ففهمت أن النظام هنا هو نظام الخدمة الذاتية، ولما وصلت إلى الخبز قلت للرجل: "one?"، فقال (لا أدرى بالإنجليزية أم بالإيطالية): واحد، اثنان، ثلاثة، وهو يحرك يده حركة تسامح، فأخذت اثنين ثم ثالثا، وكان الطعام كثيرا.

وكنت قد حاولت فى الصباح أن أحصل على تأشيرة لدخول روما، لكن الضابط لم يوافق، لأننا لم نكن سنبيت الليلة هناك، فكان علىَّ أن أقضى أكثر من سبع ساعات فى المطار. وشعرت بقليل من الضيق فى أول الأمر، بيد أنى استسلمت للأمر الواقع، فزال عنى هذا الشعور، وبخاصة أن صالة الترانزيت والانتظار كبيرة بل مهولة (فيها أربعون بوابة يدخل منها الركاب إلى الطائرات. وبالمناسبة فلمطارنا بوابتان لا غير، والمسافة بينهما أصغر جدا من المسافة التى بين بوابتين من بوابات المطار الإيطالى). كما كان الجو مكيفا (على عكسه فى مطار داكار، الذى كان حارا وخانقا إلى حد ما). وقطعت الوقت بالقراءة فى كتاب ألان مورهيد: "The White Nile"، وهو كتاب ممتع. قرأت منه أكثر من ثلاثين صفحة (كل صفحة فيها أربعون سطرا، والسطر محشوّ بالكلمات)، وكنت أغفو وأنا جالس بين الحين والحين، نصف ساعة كل مرة.

وكنت قد توضأت فى الطائرة قبل النزول منها، فانتبذت مكانا خاليا صليت فبه الظهر والعصر قصرا. وكان ذهنى وقلبى صافيا، وكانت صلاتى من الأعماق، إذ أحسست الله سبحانه قريبا منى.وأخذت أستغفره وأدعوه لك وللطفلين وأحمده على أنه أعطانيهما ومتعهما بالصحة وحلاوة الشكل والذكاء. وألححت عليه سبحانه ألا يحرمنى منهما. لقد كنت متحرجا فى البداية أن أصلى، غير أن هذا الحرج سرعان مازال بعد قليل، فقمت فصليت باطمئنان كما لو كنت أؤدى الصلاة فى مصر، وفى المسجد، ونسيت الناس من حولى. ولا أظن أن من رآنى قد انشغل بي.

وفى الطائرة لم أكلم أحدا تقريبا، وكنت سعيدا آنذاك. وقرأت نحو عشرين صفحة أخرى. وكنت معظم الوقت أجلس على مقعد مجاور لمقعد خال. أما فى مطار روما فقد قابلت وأنا أحاول الحصول على التأشيرة ثلاثة شبان سعوديين فهمت منهم أنهم فى جولة سياحية فى بعض المدن الأوروبية والعربية. وقال أكثرهم كلاما إنهم يبغون "الفرفشة"، فأشرت مداعبا إلى سبحة فى يده (وكان مع زميل له ثان سبحة أيضا)، وقلت له: وماذا تفعل هذه السبحة فى يدك؟ فقال بالإنجليزية: This is for nothing. كذلك قابلت طبيبا مصريا ومعه سيدتان كانوا مسافرين إلى البرازيل بعد منتصف الليل. ولذلك حصلوا على إذن بالدخول إلى روما. أما فى صالة الترانزيت فَوْقُ فقد قابلت شابا مغربيا عائدا هو ورفاقه من السعودية، وكان هادئا. وحدثنى عن السعودية، وشكا من كثرة القيود من مثل أنه لا يجوز للأجنبى أن ينتقل من مدينة إلى أخرى هناك إلا بعد حصوله على تصريح بذلك، وأن هذا التصريح يستغرق وقتا طويلا. ثم قال إن الأجور قد انخفضت وإنهم يستغنون عن كثير من العرب العاملين عندهم. كذلك ذكر أن الباكستانيين والهنود يرضَوْن بمائتين وثلاثمائة ريال فى الشهر، وأنه لا يعرف كيف يعيشون على هذا المبلغ المستحيل.

قلت إننى صليت بذهن وقلب صاف، والحقيقة أن مشاعرى كانت صافية طول اليوم، وأحسسست وأنا فى الطائرة الإيطالية كأن طاقمها وسفرجيتها يطوّقون عنقى بجميل كبير. وزال إحساسى حينها بالخلافات الدينية واللغوية والتاريخية وخلافات العادات والتقاليد، ولم أعد أرى إلا أننا جماعة واحدة فى كف الجو تحرسنا عناية الرحمن جل وعلا. والعجيب أننى كنت مستسلما تماما لأى شيء يمكن أن يأتى به القضاء والقدر حتى لو انفجرت (الشر بَرَّه وبعيد) بنا الطائرة فى الجو. قلت لنفسى: وهل سيكون ثمة وقت

أخاف فيه؟ إننى سأكون حطاما (طبعا لم أتحول إلى حطام، فالذى يكتب لك الآن هو أنا بكامل جسمى وبكامل قواى العقلية لا حطامى).

وفى الطريق من الدار البيضاء إلى داكار أطفأوا الأنوار بعد أن قدموا الطعام والشراب، فأكل من أكل وشرب من شرب. وكانوا قد وزعوا علينا قبلها الوسائد والبطاطين فنام الجميع تقريبا، غير أن نومى لم يكن مريحا، فكنت أنام وأستيقظ، وأستيقظ وأنام. أما من كان يجلس وحده على مقعد من مقاعد الوسط الأربعة فقد رفع أذرع المقاعد إلى الخلف وتمدد وتغطى بالبطانية (شاب أفريقى لم يكتف بتغطية جسمه فغطى وجهه أيضا). وبالنسبة لى كان الجو لطيفا ولم أحس بالحاجة إلى غطاء. والحمد لله أننى لم أخذ البلوفر معى، فقد كان الجو فى روما (أقصد فى مطار روما المسمى: "مطار ليوناردو دافنشى". عندنا لا يسمون مثل هذه الأشياء إلا على أسماء الحكام) جوا مثاليا.

وفى داكار كان الجو حارا أو شبه خانق. ولا أظن أن هناك تكييفا هوائيا، وإن كان فهو لا يعمل كما ينبغى، ولكن كانت هناك مراوح سقفية، واضطررت أن أبيت فى فندق ملاصق للمطار بثلاثة وأربعين دولارا، مع أنه لا يستحق خمسة دولارات. فالسقف ممزق فى بعض المواضع فى الردهة وفى الحجرة أيضا، والماء يقطر منه. ولم أنم فيه إلا ساعتين: من الثالثة إلى الخامسة. وكنت قد وصلته فى الثانية صباحا، وغادرته فى السادسة. وصليت هناك المغرب والعشاء، لكن ليس بالصفاء الذى كنت عليه فى روما. ثم صليت الفجر فى الخامسة والنصف. وعندما غادرت الغرفة وجدت موظف الاستقبال وأحد رجال الشرطة على سجادة الصلاة فى وضع من فرغ منها وشرع يدعو. وقد أخذ حامل الشنطة، الذى لم أَدْعُه ولكنه هو الذى حملها وقادنى، فانقدت وراءه (ضَعْف شخصية بقى!)، فأخذنى إلى هذا الفندق، أربعة دولارات، مع أنه لم يمش إلا خطوات: دقيقة أو دقيقتين. وكان قد قال لى بالإنجليزية فى خلال هذه المسافة القصيرة: هذه المسافة القصيرة: ten dollars. فقلت فى سرى: أيوه. جئنا للجدّ! وعندما وصلت وجدت شابا إفريقيا يستمع فى المذياع لأغنية لشادية فيما أظن، فالتفتُّ إليه مأخوذا، فقال لى وهو يشير إلى الراديو: "أغنية زين". وأخبرنى أنه من موريتانيا وأنه صحفى مرافق للرئيس الموريتانى، الذى لا أدرى أين كان ذاهبا. وهل هناك فرق بين أن يذهب هو أو غيره من حكام المسلمين شرقا أو غربا؟ إن النتيجة واحدة. وظل معى ونحن نحسب أجرة الغرفة بالدولار حتى استقرت على ثلاثة وأربعين دولارا، يعنى مائة جنية مصرى فى ساعتين

نوما وساعة ونصف فى دورة المياة والصلاة وتغيير الملابس، وياله من فندق! وهم فى داكار يتكلمون الفرنسية، وبعضهم يعرف الإنجليزية. وقد استطعت أن أعبر عما أريد أن أقوله بالفرنسية حين لم أكن أجد من يخاطبنى بالإنجليزية. أما مع الشاب الموريتانى فكنا نتحدث بالعربية، التى أخبرنى أن كل المتعلمين فى موريتانيا يعرفونها، لأنهم يدرسونها فى المدارس.

أما فى بانجول فقد كان المطار هادئا كأنه محطة أوتوبيس فى قرية مصرية هادئة، وتم دخولى البلد سريعا، وعندما علم الضابط الذى كان يفحص أوراقى بالغاية من مجيئى قال: آه. إنهم يأتون عادة هنا فى الصيف لهذا الغرض. وعندما أردت أن أعطى حامل الحقيبة الذى أخرجنى من المطار (دقيقة مشيا) أجرته تذكرت أنه ليس معى إلا المائة دولار والعشرة دولارات الأخرى. ولم يكن مكتب تغيير النقود مفتوحا. فأعطيته جنيها مصريا، فقبله من غير تذمر، وشكرته وركبت التاكسي.

ما هذا؟ خضرة، خضرة، خضرة، وأشجار، أشجار، أشجار، وظلال وارفة، وزَرَابِىُّ مبثوثة (ولكن من العشب). وعندما عرف السائق أن اسمى إبراهيم قال لى (وهم هنا يتحدثون الإنجليزية، وإن كانت هناك خمس لغات محلية أخرى قال لى إنه يعرف الثلاث الرئيسة منها) :وأنا اسمى عبد الله إبراهيم.

قلت ضاحكا: أنت ابنى إذن.

فرد ضاحكا أيضا: نعم. أنا ابنك.

فقلت له وأنا أصطنع الجد: يا بنى، لقد قطّعتَ قلبى بغيابك الطويل عنا. لقد طفتُ العالم كله أبحث عنك. وهأنذا بعد هذا العمر الطويل قد وجدتك أخيرا فى بانجول. إن أُمَّك (أقصدكِ أنتِ) تبكى بدموع غزار عليك. إنك تستحق علقة.

فأمَّن على كلامى وهو يضحك، وقد كان أظرف سائق قابلته فى حياتى.

ثم بعد قليل:

أنا: إن بلادكم جنة.

هو: نعم، نعم.

أنا: ولكن لا أظنك تحس بذلك بنفس القوة التى أحسه بها.

هو: بلى.

أنا: ولعلك تشعر بالملل من هذا النعيم الذى أنتم فيه.

فأمَّن على كلامى.

أنا: وربما لن تدخل الجنة يوم القيامة بل الجحيم كنوع من التغيير.

فأخذ يقهقه وهو سعيد، ودعوت الله ألا تنحرف عجلة القيادة من يده، فلا تعود سعادة ولا يحزنون.

ثم أردفت: ومع ذلك فإنى كلى أمل أن يتداركك الله برحمته وينقذك من النار.

ولم نكف عن الكلام والضحك بهذه الطريقة طول الطريق. وقد اقترح علىَّ، عندما سألته عن أسعار الفنادق، أنه لا داعى لفندق أطلانطيك لأنه مرتفع الثمن فى المبيت والطعام، وأنه سيرينى فندقا قريبا جدا منه ونظيفا وهادئا بأقل من نصف أجرته. وفعلا. ولكنى ذهبت أولا إلى الأطلانطيك أستعلم عن زملائى أو عن أحد ينتظرنى فلم أجد أحدا، فعدنا إلى الفندق الآخر، وهأنذا جالس فى غرفتى أكتب إليك. وأجرة المبيت ثمانية عشر دولارا فى الليلة (بعد التخفيض على أساس أنى سأمكث فيه شهرا)، أما الطعام فبنحو ثمانية دولارات غَدَاءً وعَشَاءً، لأن الفَطُور داخل فى أجرة الغرفة. وأنوى البقاء هنا إلا إذا كانت إقامتنا على حساب الحكومة الجامبية فى فندق الأطلانطيك (ولا أظن. وبالمناسبة فأجرة المبيت هناك خمسون دولارا).

وقد تناولت طعام الغَدَاء، وكان لطيفا. طبق واحد فيه أرز يشبه الفريك ولكنه مائل إلى الصفرة، وقطع كافية من اللحم، وفلفلة حمراء حراقة، وقطعة باذنجان، وقطع تشبه قطع البطاطس ولكنها ليست هى.

جهاز التكييف فوق رأسى، ولكنه ضعيف. والشمس تضرب فى النافذة الغربية الآن (الساعة السادسة إلا دقيقتين)، ولكن الستارة تخفف من حرها، وأتوقع أن يكون الجو بالليل أجمل. أما التكييف فى حجرة صاحب الفندق فهو قوى جدا، وقد أحسست بالفرق بمجرد أن خطوات داخلها. وقد أخبرونى أنه إذا لم تعجبنى حجرتى التى أنا فيها فيمكنهم تدبير حجرة أخرى (وأغلب الظن أننى سأغيرها). والآن وداعا. وسوف أصلى الظهر والعصر إن كانت المياه قد عادت، فقد وجدتها مقطوعة عند استيقاظى من القيلولة. قَبِّلى لى يمنى الحلوة الجميلة وعلاء الدين الوسيم. وياليتكم كنتم معى هنا– إبراهيم.



زوجتى العزيزة ويمنى وعلاء الدين

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وبعد:

فالساعة الآن العاشرة إلا ربعا مساء يوم الأحد ١٩/٧/١٩٨٧م، ولعلكم نائمون الآن، اللهم إلا إذا كان هناك فِلْم فى التلفاز. إننى أحس بوحشة لبعدى عنكم، وأتمنى لو أن علاء الدين ويمنى هنا لأقبلهما فى عيونهما وخدودهما وشفاههما، كما كنت أفعل فى مصر، عشرات القبلات، كل عشرٍ معا فى نغمة موسيقية معينة: ثلاثا ثلاثا ثم واحدة، ثم ثلاثا أخرى فثلاثا فواحدة... وهكذا دواليك حتى أبلغ الرقم الذى حددناه، والفرق بين يمنى وعلاء الدين أن يمنى لا ترحب كثيرا بذلك، أما علاء الدين فإنه سرعان ما يقسم بالله أن أقبله ثلاثين أخرى أو خمسين مثلا، فنبدأ النغمات الموسيقية مرة أخرى، ولا يبدو عليه إحساس بضيق التنفس. كيف أنت أيها العفريت؟ وكيف أنت يا يمنى؟ وكيفت فاطمة؟

أكتب الآن إليكم من غرفة أخرى غير الغرفة التى كتبت لكم فيها الرسالة السابقة، والغرفتان متقابلتان، وهما أول غرفتين فى الممر. والتى أنا فيها الآن شرقية. وقد انتقلت إليها لآن الشمس طوال الظهر والعصر تضرب النافذة الغربية فى الغرفة الأولى فلا أحس كثيرا بالتكييف، فضلا عن أنها أوسع من هذه لأنها لاثنين، وإن كانوا قد أعطَوْها لى بأجرة غرفة مفردة، إذ إن معظم الغرف خالية، فالموسم فيما عرفت ليس موسم سياحة لأن موسم السياحة فى الشتاء حيث يكون الجو شديد البرودة فى أوربا ويكون هنا دافئا ولا تسقط الأمطار على ما أخبرونى، أما فى الصيف فتسقط الأمطار، والجو شديد الحرارة. وقد رأيت آثار المطر هذا الصيف عندما خرجت من الفندق لأتجول قليلا. كما أنها أمطرت قبل نحو ساعتين، وكنت قد خرجت فى جولة أخرى، وقادتنى قدماى إلى شاطىء الأطلنطى.وهناك تقابلت مع شاب كان يجرى فاستوقفته وسألته عن السر فى أننى لا أرى أحدا من أهل المدينة يستحم فى مياه المحيط مع أن الجو شديد الحرارة فى بانجول. وبعد قليل سألنى هل أتكلم لغة أخرى بجانب الإنجليزية. قلت له إننى أتكلم العربية، فأخبرنى أنه يتكلمها أيضا. وقد عرفت منه، واسمه أحمد، أنه من سيراليون، وأبوه زعيم قبيلة، وهو رجل طيب جدا، ويحب دينه ويعمل على انتشاره فى بلاده، ولكنه غير متعلم، وأنه هو قد تعلم فى السنغال، وكان كل تعليمه باللغة العربية، وأنه يريد أن يواصل تعليمه فى بلد عربى، وأن له أخا فى السعودية، وقد أخذ معه أوراق أحمد، ولكن ميعاد التقديم كان قد فات. وأخبره أنه سيقدم الأوراق مرة أخرى فى العام القادم. وقد شرحت له فرص

التعليم بالنسبة لمثله فى مصر والسعودية والعراق على قدر ما أعرف. وسألنى: هل تكفى ألف دولار للعيش فى مصر سنتين؟ وأجبته بالإيجاب، إذا أجر سريرا فى غرفة بنحو عشرين جنيها فى الشهر، وأنفق كل يوم على طعامه جنيها واحدا على ألا يشغل نفسه (ولا معدته) باللحم كثيرا، ولكنى حذرته أن يسافر إلى مصر إلا بعد أن يحصل على موافقة من إدارة البعوث بقبوله طالبا فى الأزهر، وإلا فقد ينفق أموالا على التذكرة ويعود بخُفَّىْ حُنَيْن. وقلت له إن فرصة العمل فى العراق عظيمة، ويستطيع أن يوفر كل عام أكثر من ألف دولار، ولكن غير مسموح له أن يخرج إلا بقدر معين من المال بسبب الحرب. ولكن المسألة هى كيف يحصل على تأشيرة الدخول، التى لا تشترطها العراق بالنسبة للعرب، ولا أعرف هل يشترطونها بالنسبة لغير العرب من المسلمين أَوْ لا. أما السعودية فقد أخبرته أنه لو استطاع الحصول على منحة منها فإنها، فيما أقدِّر، ستكون منحة كبيرة جدا، وسوف يسكن فى مسكن فخم ويعيش منعما. وقد بدا لى أنه شاب طيب، وذكر لى أنه يصلى وأنه يشتغل فى السوق فى تجارة العطور. وقد بدأ تجارته بخمسمائة دالاسى، وقد أقرضه رجل موريتانى ألف دالاسى، وأخذ منه جواز سفره كرهان. وذكر هذا الموريتانى بالخير، فهو الوحيد الذى أقرضه مثل هذا المبلغ (الدالاسى هنا كالجنية عندنا، وإن كان يساوى سدس دولار الآن، أى أنه أقل قليلا من نصف جنيه. هذا إذا كانت حسبتى سليمة لأن عقلى الآن ليس معى). كما قال لى إنه يعمل جاهدا لتوفير ثمن التذكرة إلى بلد عربى وإنه لا ينتظر شيئا من أبيه لأن إخوته كثيرون، وإن له أخا أكبر فى بانجول، ويشتغل أيضا بالتجارة فى السوق. وقد طرأت لى فكرة ذكرتها له، وهى أننى سأرسل خطابا إلى الأستاذ فتحى عثمان فى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيكو) بالمغرب، فربما استطاع مساعدته فى الحصول على منحة دراسية فى المغرب أو فى أى بلد عربى. وبالفعل اصطحبته معى إلى الفندق، وأعطيته ظرفا مختوما بطابع بريد (اشتريت أمس ظرفين من هذا النوع بدالاسى ونصف)، وقلت له: اكتب ما تريد بالعربية، وهاته وأنا أزكّيك فى نهايته، وترسله بنفسك حتى تطمئن. وقدمت له كوبا من عصير البرتقال، الذى اشتريت منه زجاجة أمس (لترين) بعشرين دالاسيا (تصورى! إنها فى مصر لا تساوى أكثر من جنيه ونصف فيما أعتقد. والأسعار هنا نار، مع أن البلد فقير جدا جدا، والعاصمة ليست فى مستوى بسيون، المركز الذى تتبعه قريتى كما تعرفين). المهم، أمطرت السماء ونحن مستغرقان فى الحديث على شاطىء الأطلنطى، وطيور النورسْ (يا لِّلِى مْقابْلِيتِّى.غَنُّوا سَوَا كُورَسْ. واهتفوا وَرَا مِنِّى) على مقربة منا تصدر

صيحاتها المعروفة. وكان البرق والرعد قد ابتدأ، فقلت له إنها ستمطر، ولكنه أكد لى أنْ "لا"، فعدت أقول إنها ستمطر ما دامت تبرق وترعد. فقال: لا، إن هذا يحدث فى بانجول كثيرا من غير أن ينزل المطر. ثم صدق توقعى، وأمطرت السماء فجأة مطرا ولا مطر بريطانيا: حبات كبيرة من المطر بغزارة شديدة، فوضعت ذيلى (ذيل جلبابى أعنى: لأنى ليس لى ذيل كما تعرفين) وأخذت أعدو وراءه، أما الشبشب فخلعته وواصلت العدو، ولكن لا فائدة، فقد تحولت العباءة (الجلابية) التى اشتريناها من صيدناوى، وتحولتُ معها، إلى عصرة. ولو أن أحدا عصرنى لنزل من جسمى مطر كثير ومعه سمك أكثر: سمك من المحيط دخله مع ماء المطر! ولكن أحدا لم يعصرنى، ولذلك لا أحس لا بالعطش ولا الجوع هذه الليلة كما أحسست بهما أمس، وكيف أعطش وماء المحيط فى بطنى؟ وكيف أجوع والسمك يملأ معدتى وأحس به "يتلعبط" الآن؟ ولذلك تَرَيْنَ خطى مهزوزا قليلا. وكنت وأنا أجرى أخاف أن يصعقنى البرق، بل إنى أجفلتُ مرة أو مرتين وحِدْت بجسمى كأنى أتفاداه. إنها الغريزة. وهل كان هو سيتفادانى لو أراد قتلى ؟

وفى طريق عودتنا عرَّجنا على فندق الأطلانطك حيث كنت تركت رسالة للسيد ماسوناكاه المسؤول الجامبى عن البرنامج الذى سأشتغل فيه، وأخرى للدكتور محمد شطاطو المغربى، الذى أُخْبِرْت أنه سيصل إلى بانجول يوم التاسع عشر من هذا الشهر (يعنى اليوم)، فلم أجد الدكتور شطاطو، لكن موظفة الاستقبال أخبرتنى أن مستر كاه قد حضر إلى هناك، وأنه اتصل بفندق كانتورا حيث أقيم فقالوا له إننى خرجت. فقلت: إذن فقد كنت جالسا أستمتع بالمحيط على حين كان الرجل يبحث عنى. وهذه هى النتيجة كما تَرَيْن. فأنا مبتلٌّ لبسا وجسما. ثم سألتها عن رقم تليفونه، فقالت: إنه لم يتركه، ولكن يمكنك الاتصال به غدا فى وزارة التربية. هل تعرفها؟ قلت لها: لا أعرف إلا إياك، اللهم إلا إذا كنت أنت وزارة التربية (وكنت أخطأت فقلت: وزير التربية. معلهش، الغلطة مردودة)، فكتبت لى عنوان المكان. ثم انصرفنا لأفاجأ وأنا أدخل الفندق، وكان النور مقطوعا وقد أضاؤوا شموعا وكشافا يدويا، بمن يحيينى بالعربية، فقلت له على الفور: أنت مستر ماسونا كاه؟ قال: نعم. فقلت: لقد كنت أظن مستر ماسونا كاه (ونطقت اسمه مفخما) شخصا كبيرا فى السن ضخما فى الجسم، ولكن لم أجد إلا مستر ماسونا كاه (نطقت الاسم هذه المرة مرققا مهموسا). فضحك، وأخذ يشرح لمن حوله ماذا قلت، لأننا كنا نتكلم بالعربية. وكان كلامه لهم بلهجة

محلية، ولكنى فهمت ماذا يقول من حركات يديه وترديده لاسم ماسونا كاه مرتين، فانفجروا ضاحكين.

ولما عرف سنى وأنى مشرف على الأربعين قال: إذن فأنا أصغر منك. قلت له: وهذا ما قلته لك منذ قليل.

وعرفت منه أنه تعلم فى جامعة بنى غازى فى كلية الآداب وكان أساتذته مصريين، وأنه لم يكن يعرف اللغة العربية قبل الذهاب إلى ليبيا إلا مبادئ قليلة. فقلت له: مثلى عندما ذهبت إلى بريطانية، فقد كنت لا أعرف من الإنجليزية إلا مبادئها. فسألنى: وهل كتبت رسالة الدكتوراة هناك بالعربية؟ قلت: لا، بل بالإنجليزية. فقال: واضح أنك تتحدثها بطلاقة. قلت: ربما كان ذلك بالنسبة إلى الناس هنا. أما فى بريطانية فلا أظن الأمر كذلك، ولكنى أفهم جيدا وأستطيع أن أعبر عما أريد قوله بوضوح إلى حد كبير.

ولما سألته :هل كنت سعيدا فى ليبيا؟ أجابنى أنه كان سعيدا هناك وهو طالب، أما عندما زارها فى الفترة الأخيرة بدعوة من الحكومة الليبية (وإن كان قد قال: بدعوة من القذافى) فإنه لم يشعر بالاطمئنان، لأن البلد على حد قوله قد أصبح مثل المجر (وذكر بلدا شيوعيا أوروبيا آخر لا أذكره الآن). لقد تحولت ليبيا إلى دولة شيوعية: وعندما أخبرونى أنهم سيأخذوننا لمقابلة الرئيس فى قريته فى الصحراء ركبنى رعب شديد. وهناك انتظرنا نصف ساعة قبل أن يسمحوا لنا بالدخول عليه فى خيمته. وقد قدم الشاى لنا وكلمنا بلطف وهدوء شديد أثار استغرابى لأنه فى سياسته وخطبه عنيف وثورى، وإن كان قد هاجم دول الغرب والدول العربية والإفريقية وجامبيا، التى اتهمها بالتعاون مع أمريكا. وقد رأيت الخيمة مجهزة بالألكترونيات. وعندما رجعت إلى العاصمة تشهَّدت أننى خرجت سالما. فقلت له: لا أظن أنه يؤذيك أنت وأمثالك لأنك مدعو إلى هناك بدعوة رسمية، وأنت تمثل حكومتك. ثم قلت له: انظر. إنه يزعم أنه يحب حياة البساطة والصحراء. وقد رأيته على شاشة التلفاز البريطانى أكثر من مرة وهو يصب الشاى وهو جالس على الأرض وما إلى ذلك. ولكنك تقول إن الخيمة مجهزة بالآلات الإلكترونية، وهذا يبين الفرق الشاسع بين الدعوى والحقيقة، بين الدعاية والواقع. ثم قلت له: وأيضا لا أستطيع أن أهضم هجومه على جامبيا أو مصر مثلا لتبعيتهما كما قال للغرب، وإن كنت أنا لا أحب ذلك، فهو أيضا تابع للسوفييت. فهل السوفييت ليسوا غربيين؟ هذا إن لم يكن متعاونا فى حقيقة الأمر مع الأمريكان ولا تكون مهاجمته لهم فى إذاعته وهجومهم على بيته فى ليبيا إلا ستارا خداعا لإظهاره بالمظهر القومى المعادى للاستعمار، فإنى أظن أنهم لو أرادوا التخلص منه ما عجزوا عن ذلك. وعلى أية حال فإن سياسة الغرب معنا، روسيا أو أمريكا، هى سياسة

استنزاف مواردنا على مصانع وأسلحة لا تسمن كثيرا من جوع، ثم يضربوننا بعد ذلك ويدمرون قوانا الاقتصادية والعسكرية لتبدأ دورة جهنمية أخرى من الاستنزاف المالى والتدمير الاقتصادى والعسكري... وهكذا دواليك. والمسلمون لا يتعظون، وهم عن كراهيتنا والتخطيط للقضاء علينا لا يكفون.

أريد أن أحدثكم عن العاصمة بانجول وعن بعض الأشخاص الآخرين الذين قابلتهم وعن الغابات المنتشرة فى المنطقة التى أسكنها، ولكن الساعة الآن الحادية عشرة والربع. ومعنى ذلك أننى أكتب لكم منذ ساعة ونصف لم أتوقف خلالها إلا مرتين لأقرأ ما كتبت. وأظن هذا كافيا الليلة، وسوف أوافيكم برسالة أخرى غدا إن شاء الله وكان فى العمر بقية. قبلاتى لكم جميعا وبخاصة لعلاء الدين فى عينيه الجميلتين ثلاثا فثلاثا ثم واحدة: طق طق طق. طق طق طق. طق طق طق. طق، ثم ثلاثا أخرى فثلاثا فثلاثا ثم واحدة. وهكذا إلى المائة، على ألا يحلف أن أزيده لأنى أريد أن أقرأ قليلا قبل أن أنام. وتصبحون على خير-

إبراهيم.

يا أحلى ثلاثة فى الوجود، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وبعد:

فهذه هى الليلة الثالثة فى بانجول. والساعة الآن قد تجاوزت الثانية عشرة والثلث بقليل. وقد أتيت من الخارج من فندق الأطلانطيك من عند زميلى المغربيين: د. محمد شطاطو ود. صلاح مرحاب (الأول يعمل فى الإيسيسكو، والثانى فى الجامعة، وقد فهمت أن د. شطاطو قد حصل على الدكتورية من أمريكا، أما الثالث فمن قسم علم النفس من جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م. قلت له: انظر إلى عجائب القدر. لقد كانت بيننا فى القاهرة خطوات فقط ولم نتعارف بل لم ير أحدنا الآخر، ثم ها نحن نلتقى ها هنا على مبعدة آلاف الأميال من بلادنا!). وكان الجو شديد الحرارة، وكنت أتصبب عرقا، وناقشنا بعض المسائل المتعلقة بتنظيم الدورة، ثم عدت من هناك وجسمى لزج من الحرارة والعرق: ولم يكن فى الحنفية ماء، فأخذت من ماء المِثْعَب ومن القطرات التى تجود بها الحنفية بغاية الشّح، واستطعت أن أستحم وأسترد حيويتى بل آدميتي.

عندما تقابلت فى الصباح مع هذين الزميلين فى فندقهما رحبا بى، وأخذ د. مرحاب يثنى على مصر "أم الدنيا"، فقلت له: إنها لم تعد أم الدنيا، وأظن أن "أخت الدنيا" كفاية عليها. فقال: لا، مصر مهما يكن هى "أم الدنيا". وقال لى: إنه كان محبا لزملائه وأساتذته المصريين محبوبا منهم. وقد علمت منهما أن الأستاذ كاه وأستاذا جامبيا آخر قد تدخلا لدى إدارة الفندق وخفضا لهما أجرة المبيت (شاملة الفطور ووجبة الغداء أو العشاء، أيتهما يحبان) من خمسة وخمسين دولارا فى الليلة إلى خمسة وثلاثين فقط، يعنى نحو خمسة وثلاثين فى المائة. وقد فاتحت صاحب الفندق الذى أنا فيه فى ذلك، فوعدنى أن يزيد التخفيض الذى أعطانيه من قبل.

وكنت قبل أن أذهب إلى الأطلانطك هذه الليلة قد قمت بنزهة مع السيراليونى (واسمه أحمد، إن كنت لم أذكره لكم فى الخطاب السابق) وأخيه أبى بكر، الذى كان غائبا عن بانجول ثم حضر اليوم. وقد حضرا إلىَّ فى الفندق وأيقظانى من النوم، فقدمت لهما بعض عصير البرتقال، ثم صليت الظهر والعصر ونزلت إليهما فى ردهة الفندق حيث سبقانى إلى هناك، ثم ذهبنا معا إلى شاطىء المحيط. وفى العودة مررنا ببعض المحلات، فاشتريت علبة من الجبن النيوزيلاندى واطمأننت من قراءة مكوناته إلى أنه خال من شحم الخنزير، وهو الجبن" الشيدر"، ووزنه ١٢ أوقية، وثمنه عشرة دالاسيات، يعنى أكثر من دولار ونصف

بالسعر الرسمى. كذلك اشتريت رغيفا من الخبز الفينو بدالاسى وخمسة وثلاثين بوتوتو (البوتوتو هو الوحدة المئوية من الدالاسى كالقرش بالنسبة للجنية مثلا). وهو أكبر قليلا من رغيف الفينو القاهرى أبى عشرة قروش (ثلاثين قرشا عند الريان!)

وبعد الشراء صلينا العشاء فى الجامع. وقد جاء الإمام قبل الصلاة فسلم علىّ. وهو رجل وسيم تنطق ملامحه بالطيبة، إن صحت قراءتى لوجهه. وهو يتكلم العربية إلى حد ما. وكان الجو حارا لولا أن المراوح السقفية كانت تلطف من حرارته. وقد صليت السنّة والوتر تحت إحدى المراوح مباشرة، فأحسست بالانتعاش. وبعد أن خرجنا أخبرنى أحمد أن الإمام والمصلين فى الصف الأول كانوا ينتظروننى لأتقدم وأكون من أصحاب الصف الأمامى. فقلت له: لماذا هذا؟ فقال: لأنك ضيف، وهم يعملون بالحديث الشريف: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. فأكملت ضاحكا: فليكرم ضيفه. قال: نعم. قلت: إننى آسف، فإنى لم أتنبه: هل ينبغى أن أعود فأعتذر لهم عن عدم تنبهى لهذه اللفتة اللطيفة؟ قال: لا، الأمر لا يستأهل.

وكنت قد صليت أمس الظهر والعصر (جمع تقديم) فى نفس المسجد، وهو قريب جدا من فندقى، وعلى نفس الرصيف. وكان هناك فى الصلاة (أمس واليوم) العدد الذى يكون فى مسجد مصرى. والمسجد مدهون الحيطان بالأبيض إلا أفاريزها وأفاريز العقود، فهى مدهونة بالأخضر، وفى أعلى العقود نجوم ثمانية بالأخضر أيضا. والمحراب واسع، وأعلاه على شكل قوس مدبب من الوسط، وتجويفه عميق فى سعة حجرة صغيرة، وفى يمينه وشماله نافذتان، وفى أقصى عمقه باب. ونوافذ المسجد كبيرة فى كبر البِيبَان تقريبا. والمنبر عبارة عن درجة سلم أو درجتين على شمال الخارج من المحراب، ويفصل بين الخطيب والمصلين حاجز يشبه الدرابزون، ووراءه مقعد حجرى، وفى نهاية المنبر من الشمال (شمال الخطيب وهو يواجه المصلين) باب أو نافذة كبيرة. أما الميضأة فهى حنفيات يجلس إليها المتوضئون جميعهم على دكة حجرية كالتى فى بعض الحدائق العامة فى مصر (مثلما هو الحال فى حرم جامعة عين شمس مثلا). وأبواب المسجد كثيرة نظرا لحرارة الجو، وأظنهم دهنوه باللون الأبيض لكيلا يمتص شيئا من أشعة الشمس. وهناك فى بهو المسجد عدة أعمدة تحمل عقودا على هيئة جزء من الدائرة: ثلاثة عقود على اليمين ومثلها على الشمال. والعقد الأوسط هو أكبرها.

أما شوارع المدينة فهى غير مرصوفة إلا شارعين اثنين، ومع ذلك فرصفهما غير جيد، وهما ضيقان. والمجارى عبارة عن قنوات بجوار حيطان البيوت مكشوفة. ويبدو أنها كانت مغطاة لأن هذه الأغطية لا تزال موجودة فى بعض الأماكن، ثم خُلِعت ولم يركَّب بدلها أغطية أخرى. وتَرَيْنَ الفضلات البشرية إما متجمدة وإما سائلة جارية. وأحيانا لا تشمين لها رائحة، وأحيانا تكون رائحتها كريهة، ولكن ليس إلى حد الغثيان. وقد قيل لى إن شركة فرنسية قد تعاقدت معها الحكومة لتجديد المجارى.ولكن بعد أن كانت قد اتفقت على مبلغ معين قبل البدء عادت بعد أن بدأت الحفر ونكتت الشوارع فطالبت بالمزيد. ويبدو (إن كنت قد فهمت جيدا محدثى، وهو مدرس جامبى مشترك معنا فى تدريب المدرسين الجامبيين الآخرين الذين يدرّسون العربية فى المدارس الجامبية) أن الحكومة قد استجابت. وقد قلت له: لو أن الحكومة قد وقفت موقفا صارما لانصاع الفرنسيون لبنود الاتفاق، ولكن الأوربيين شياطين!

والناس هنا يجلسون على الأرصفة مفترشين الأرض أو على كراسى، والمجارى تجرى من تحتهم. إن جنة الآخرة تجرى من تحتها الأنهار، أما جنة جامبيا فتجرى من تحتها... (well كما يقول الإنجليز فى مثل هذا السياق، ولا داعى للتكملة، فأنت تعرفين اللى ما يتسماش). وهم لا يبدو عليهم أى تأفف لا مما يَرَوْن ولا مما يشمّون، وكأنهم يقضون "ليالى الأنس فى فيينا. نسيمها من هوا الجنة"! والحقيقة أن الأرصفة إن وجدت فهى أغطية المجارى.والعجيب أن يكون المحيط على بعد أمتار منهم فيفضلوا هذا الحر الخانق فى الشوارع الضيقة (وإن كانت مستقيمة أو شبه مستقيمة ومتعامدة) والروائح" اللى بالى بالك" على نسيم البحر ووشوشة أمواجة وفضائه الطليق. صحيح: الناس فيما يعشقون مذاهب!

والآن المحلات، وهى محلات متواضعة محلات قريتى أكبر منها بوجه عام. وفيها أنواع من البضائع أكثر وبكميات أكبر. وهى تشبه، من حيث النظام، دكاكين القرية: البنك الخشبى الصغير، والحاجز ذو القطع الخشبية الرأسية المتجاورة، أما الضوء فيها (ليلا) فهو ضعيف ككهرباء الريف عندنا. والشوارع كثير منها مظلم، والمضاء منها ضوؤه يعشى البصر. ومع ذلك فإنى أستنبط الرضا والسعادة من البحث فى الدكاكين عما أريد، وهو قليل، والضحك مع أى صاحب دكان (وهم فى هذا سريعو الاستجابة، والإنجليز أيضا كما تعرفين. هل تذكرين الرجل الوسيم ذا الوشم الذى كان يبيع الأحذية فى سوق الأربعاء بأكسفورد، وكنا نشترى منه الأحذية بالعشرات أحيانا ونرسلها إلى الأولاد فى القرية والإسكندرية؟ لقد كان

يقهقه بل يتلوى من الضحك فى بعض الأحيان. مرة كنت قد أوصيته أن يحجز لى عشرة قباقيب جلدية. وكنت كلما سألته هل أحضر طلبى هذا الأسبوع قال: ليس بعد. فقلت له ذات مرة: اسمع. بدلا من أن أسالك كل مرة يمكنك أن ترفع فوق عشتك راية عالية الصارى لونها أحمر بحيث أستطيع أن أراها من بعيد وأنا فى المدينة فأعرف أن طلبى قد جهز، فآتى إليك عَدْوًا. قلتها له كنوع من تلطيف الموقف، فإذا به تعجبه الصورة وتأخذه الجلالة ويضحك ويقهقه ويشرح لمن حوله الفكرة التى بدت له جديدة تماما وغريبة).
كذلك فهذا الشاب السيراليونى تاجر الروائح ذكى، والحديث معه ممتع، وإن كان قد أحزننى اليوم بأن قال: إننى لا أدرى هل أكفر أو لا إذا تساءلت: لماذا لا ينتشلنا الله نحن المسلمين من التخلف ويترك الأوروبين يسبقوننا، مع أننا نؤمن به ونعبده، وهم لا؟ قلت له: إنه تعالى وعد الصابرين بأن يقف معهم، والأوربيون أقدر منا على الصبر وأقدر على العمل وأَتْبَع لمنهج العلم. ثم أردفت: ومع ذلك فلا تخف من التفكير، فالله سبحانه يحب الذين يفكرون، فهم مجتهدون، وهو سبحانه لا يعفيهم فقط من العقاب إذا أخطأوا بل يعطيهم أجرا. وقال لى ونحن نمشى معا (أنا وهو وأخوه): أحيانا يخيل إلى أننا مهما بذلنا من جهد (يقصد الأفارقة السود، فيما فهمت) فلن نستطيع أن نسامت الأوربيين. قلت له: لا تظن ذلك، فالأوربيون كانوا هم أيضا متخلفين إلى حد كبير، وكان المسلمون يشكلون لهم رعبا دائما. وكنا نحن الذين نفتح البلاد الأوربية ونحكمها، فانظر ماذا ترى. لقد تبدل الحال. ونفس الشىء يمكن أن يحدث بينكم وبين الأوربيين. وأنا أعتقد أن الزنوج سوف يكون لهم دور قيادى فى حضارة المستقبل لأنهم مازالوا بخيرهم لم تستنزفهم الحضارة كالأوربيين. وعلى كل حال فإذا نظرتَ إلى الخلف فسوف تجد أنكم (ولا تغضب من هذا. فقال لى: لا، لن أغضب) تعيشون عيشة بدائية فى الغابة أقرب إلى عيشة الوحوش. أما الآن فها هو ذا أحمد قد تعلم وتخرج فى المدرسة ويفكر فى القضايا الإنسانية الكبرى، ويعرف العربية إلى حد كبير، والإنجليزية أيضا إلى حد معقول، ويلبس كأى إنسان آخر متحضر فى أوروبا أو فى أى مكان فى العالم. صحيح أننا نريد أن نكون كالأوربيين بل نسبقهم. وعندما ننظر إلى الفارق بيننا وبينهم نشعر بالألم الشديد. ولكن انظر إلى الفرق بينكم الآن وبينكم من قبل، ولسوف نجد أنكم قد قطعتم شوطا كبيرا. فما معنى الظن بأنكم لا يمكنكم اللحاق بالأوربيين؟ وأعتقد أن هذا الكلام قد نزل بردا وسلاما على قلبه. وهو كلام أومن به أشد الإيمان، وإن كنت لا أرى دلائل قوية على قرب تحققه لا بالنسبة للمسلمين السود ولا البيض. ومع ذلك فالتاريخ

الإنسانى لا يقاس بالسنين بل بالقرون والأحقاب، والمستقبل طويل، ويحمل فى أحشائه مفاجآت ومفاجآت.

الساعة الآن الواحدة والنصف صباحا من يوم الثلاثاء ١٩٨٧/٧/٢١م، وآن لى أن أنام، فإن عندى ميعادا فى الثامنة فى فندق الأطلانطك مع الزميلين المغربيين لنذهب إلى العمل ونبدأ الشغل. دعواتكم لنا.

قبلاتى إلى يمنى أحلى فراشة وأرقّ آنسة فى الدنيا، وإلى علاء الدين أوسم رجل، وإلى مامتهما. بالمناسبة: بعض البنات هنا يُسَمَّيْن: "بِنْتُو"، فقلت لواحدة منهن: ولكنك "بنتو" بطبيعتك لا "وَلَدُو"، فلحقنى بالشرح رجل كان واقفا معنا فى الفندق الذى أنزل فيه والذى تشتغل فيه البنت "بنتو" قائلا إنه اختصار لـ"بنت رسول الله"، فضحكت للمفارقة: أين بنت رسول الله من "بنتو رسول الله"، التى تشتغل جرسونة فى الفندق؟ ولكن، معلهش. إنها لقمة العيش! والآن، تصبحون على خير يا... خخخ (آسف، لقد نمت)– إبراهيم.

أعزائى الثلاثة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

جاوزت الساعةالعاشرة مساء بنحو ثلاث عشرة دقيقة من ليلتى الرابعة فى بانجول.

أكتب إليكم من فوق السرير، وقد أسندتُ ظهرى العارى إلى الوسادتين الإسفنجيتين، ومددت ساقى اليسرى متخذا من اليمنى ما يشبه منضدة للكتابة. عادتى أم سأشتريها؟ حصلت من صاحب الفندق على تخفيض آخر. كان قد خفض لى أجر المبيت عند وصولى من ١٢٠ دالاسيا إلى مائة وعشرة. وقد رضيت لأنى لم أكن أعرف أن فندق أطلانتيك، الذى نزل فيه الزميلان المغربيان وفنى مصرى يشتغل فى إعلام المنظمة (كان قد جاء إلى فندقى الليلة ثم تركه وذهب إلى الأطلانتيك)، سوف يعطيهم تخفيضا كبيرا كالذى حصلوا عليه (نحو الثلث وربما أكثر). أما اليوم وبعد أن عرفت بهذا التخفيض الكبير فقد فاتحت صاحب الفندق، وهو فيما أرى رجل طيب (لا أظن أنه أكبر منى كثيرا فى السن)، ونزلنا بالأجرة من ١١٠ دالاسيات إلى ٩٠ فقط. الحمد لله. قال لى: إنك بذلك تذبحنى.ومرر سبابته اليمنى على رقبته، فقلت له: أنا أذبحك؟ أنت مازلت حيا ترزق وبخير وعافية. ولما ابتسم كان ذلك إيذانا بأنه قد رفع الراية البيضاء.

ذكر لى رجل قابلته أول يوم لوصولى هنا (فى الفندق) أن صاحب الفندق يمتلك بيوتا كثيرة فى بانجول. وقال لى أحمد السيراليونى: إنه وأمثاله قد ذهبوا إلى سيراليون وتاجروا فى الماس ونجحوا فى تكوين ثروات كبيرة وعادوا. ولما قلت له: ولماذا لم تبق فى سيراليون ما دامت بلادكم، كما تقول لى، أغنى من هنا؟ قال: إن الواحد يكسب فى سيراليون كثيرا ويوفر كثيرا، ولكن لا يستطيع أن يفعل بهذه الفلوس الكثيرة شيئا كثيرا. وأظن أنه يقصد أن قيمة العملة السيراليونية ضئيلة. كذلك فقد شكا فى هذا الصدد من الحكومة، واتهمهما بالظلم. وهو طبعا عيب الحكومات الإسلامية وحكومات العالم الثالث كلها تقريبا، وإن كان فى الحقيقة هو عيب الأمة كلها لأن الحكومة هى ثمرة الأمة وانعكاس لها، وكما تكونوا يُوَلَّ عليكم

أما الرجل الذى أشرت إليه فى أول الفقرة السابقة فهو عضو فى البرلمان وعمدة الإقليم الذى ينتمى إليه. وقد قابلته فى أول يوم بعد العصر فى الشرفة، فحيانى (أو حييته أنا. لا أذكر). وفى التو لَضَمْنا معا. وبعد دقائق كنا فى الشارع، فعرفنى المحلات، وأخذنى إلى بيت أهل زوجته، وهو عبارة عن حجرة من الصاج المضلع هرمية السقف، وليس لها باب فيما أظن بل ستارة قماشية. خبط على الجدار الصاج، وبعد

قليل قال: فلندخل. فدخلنا، فوجدت سريرين: واحدا على اليمين وآخر على الشمال، ووجدت على الشمال أيضا بابا داخليا يؤدى إلى غرفة أخرى. وكان المكان نظيفا وهادئا. وظهرت حماته من الداخل: سيدة عجوز إلى حد ما ونحيفة، فسلمتْ عليَّ. ثم جاءت زوجته. ولم أتأملها جيدا (بذمتكَ؟ هكذا ستقولين وأنت تقرأين هذا الخطاب. وهل هذا كلام يدخل عليَّ؟ إننى أعرفك! والحقيقة أنك لا تعرفيننى جيدا، فأنا رجل مسكين)، ولكن يبدو أنها لطيفة التقاطيع (أنت رجل مسكين؟ رُحْ منك لله!)، ودخل طفل صغير لا أظنه ابنه (ربما كان ابن صهره، الذى دخل ثم خرج)، وأخذ ينظر إليَّ من خلف السرير. فشرعت أعابثه وألمس يده بإصبعى، فيضحك ويسحبها بسرعة، فنهرته جدته (ربما ظنا منها أنه يضايقنى)، فانتهرت أنا لثوانٍ ثم عدت فأخذت ألمس أذنه اللطيفة بإصبعى، فكان يضحك سعيدا. وكان الطفل بملابسه الداخلية فقط، وقد ترك شبشبه الإسفنجى على منفضة الأقدام على عتبة الباب، ولكنْ وضَع الشمال فى مكان اليمين، والعكس بالعكس.

ومعظم البيوت فى بانجول هكذا. وكل مجموعة منها يضمها سور من الصاج يحتوى على فناء رملى متلبد تتناثر البيوت (الحجرات فى الحقيقة) حوله. ولهذا السور باب. وأظن أن أرضية الحُجَر خشبية، وكذلك السقف. وتصعدين إليها بدرجة أو درجتين.

وهذا العضو البرلمانى أفهمنى أنه عمدة الإقليم الذى ينتمى إليه. وقد ذكر لى أن عنده أربع زوجات وأن زوجته هذه هى الزوجة قبل الأخيرة، وأنه يحظى باحترام الناس فى الإقليم، ويفض منازعاتهم. ولما سألته: هل تضربهم؟ قال: فى الزمن الماضى كان العمدة يستطيع أن يقيدهم ويرميهم فى الشمس من غير أن يجرؤ أحد أن يفكَّهم أو ينبس ببنت شفة، أما الآن فقد ولى ذلك العهد. ثم قال لى إنه يحصل من كل من يذبح حيوانا (أو يصطاده: لا أدرى) على فخذى الحيوان المذبوح. هكذا التقاليد! كما أخبرنى أننى إذا زرته فى إقليمه فإننى سأعيش "ببلاش": طعاما وشرابا ونَوْما وكل شىء. ولما قلت له: ولكننى لا أحب أن أعيش "ببلاش" ولابد أن أدفع شيئا قال: إنهم لن يقبلوا منك شيئا، اللهم إلا إذا قدمت هدية لمضيفك وقلت له: هذه للسيدة زوجتك!

عندما جاء الأستاذ المصرى (الفنى الإعلامى بالإيسيسكو) وكنت أتناول فَطُورى أخذ يتعامل مع عاملات الفندق (وهو فندق صغير هادئ، وهن هادئات ويلبين ما نطلب بدون تذمر، وبسرعةٍ ما أمكن)

بشيء من الخشونة، ويناديهن بالعربية: تعالَيْ يا بنت هنا. أيتها الـ... (لا أدرى ماذا). ولم أرتح إلى أسلوبه، وبعد أن كنت سأساعده تركته يتصرف بنفسه رغم أن لم يكن يعرف من الإنجليزية إلا بضع كلمات عرجاء. وكأن الله سبحانه أراد أن يعاقبه، فوجد فى القهوة الحصى ظفرا. فأمسك به ونادى "بنتو" وأخذ يشير إلى الظفر بطريقة محرجة. فتدخلت لأخفف الموقف. (إننى حتى الآن لم أجد فى الطعام شيئا. ولذلك قلت: كأن الله أراد أن يعاقبه فأعثَرَه بما يقززه) وكان مرهقا، فخرج معى إلى الأطلانطك ثم استأذن منا لبعض شأنه، ولم أره إلا صباح اليوم. وعلمت منه أنه نام بعد أن تركنا قائلا لنفسه إنه سيغفو خمس دقائق ثم يستيقظ فلم يستيقظ إلا صباح اليوم التالى، ونام بملابسه كاملة (بالبدلة والحذاء). وقد علق على رائحة إحدى العاملات (وكانت رائحتها نفاذة، وكنت أشم هذه الرائحة ولا أحقق مصدرها. ويبدو أن إمساكه بيدها وسحبه لها بطريقة الخشنة هو الذى جعله يكتشف أنها رائحتها) قائلا: أنا لا أعرف لماذا تركهم الاستعمار؟ لماذا لم يبق هنا ويطعمهم فيسكتوا؟ وهو كلام يدل على أنه هو الذى يحتاج إلى الاستعمار لأنه أقل من أن يتولى أمور نفسه! ومع ذلك فيبدو، فيما رأيت من بعد ذلك، أنه ليس سيئا تماما وأنه مسكين. إن هذا الصنف من الناس عادة ضعفاء، وهم يتمردون على من يجدون أنه قليل الحيلة، فإذا وجدوا من يوقفهم عند حدهم خنسوا وخنعوا، وكان قد أحضر لى مشكورا خطابا من الاستاذ فتحى عثمان به بطاقة بريدية (من الرباط ومع خطاب آخر فيه فلوس لأهل الزميل الكريم لأوصلها إليهم فى القاهرة عن طريق الأستاذ صلاح). لقد ذكّرنى أسلوب هذا الرجل بما قاله لى الأستاذ صلاح أبو النجاة عن بعض المصريين فى عمان، إذ كانوا يعاملون الهنود والباكستانيين معاملة فظة جلفة ويشتمونهم لأقل شيء، ويتعالَوْن عليهم إذا دخلوا محلاتهم وأرادوا شراء شيء منهم، والهندى من هؤلاء أو الباكستانى يترضاهم فلا يَرْضَوْن. أما مع العمانيين فإنهم مثل الـ...

اليوم افتُتِحت الدورة. وكان الزميل المغربى المسؤول عن إدارتها قد وضع جدولا، ثم نحاه ووضع آخر، ثم أهمله ووضع ثالثا، وأنا أقول له: لا داعى للقلق، ولا تشغل نفسك بالتخطيط الآن مادامت الأدوات والكتب وأوراق الاختبار لم تأت بعد من المطار. وسوف نجد ألف طريقة لملء اليوم الأول. وبالفعل بدأنا فى نحو العاشرة والنصف. وكنت اقترحت بعد أن نقدم أنفسنا إليهم أن نطلب إليهم أن يسألوا عما يشاؤون، وسوف يأخذنا السؤال إلى سؤال آخر، وسنجد أن العجلة قد مشت، وبدأت الأسئلة: بعضها عن طبيعة منظمة الإيسيسكو وتاريخ إنشائها (٨٢-١٩٨٣م) وأنشطتها وما إلى ذلك. ثم قلت: والآن إلى الأسئلة

العلمية. وسئلت من أحدهم عن السبب فى أن كلمة "قبل وبعد" مرفوعة بعد "مِنْ" فى قوله تعالى: "لله الأمر مِنْ قبلُ ومن بعدُ" مع أن وظيفة "مِنْ" هى جَرّ الاسم الذى يأتى بعدها. فأفهمته أنها ليست مرفوعة، وإنما مضمومة، أى أنها ليست معربة بل مبنية، وأن أمامه أكثر من اختيار فى ضبط الحرف الأخير فيها، فيمكنه ضمه أو جره بتنوين أو بغير تنوين، كما يمكنه حذف "مِنْ" ونطق الكلمة منصوبة، وهكذا. ثم تتالت الأسئلة عن العامية وهل كانت هناك فى القديم لهجات عامية. وكان جوابى أنى، وإن لم أكن متخصصا فى اللغة بل فى الأدب والنقد، أعتقد أنه كانت هناك لهجات قبلية هى المقابل لما نسميه اليوم باللهجات العامية. وأعطيتهم أمثلة على ذلك، مثل "عَتَّى عِينٍ" (بدلا من "حتى حين") و"عَنَّ" (بدلا من "أن") و"كتابُكِس" أو "كتابُكِش" (بدلا من "كتابك" للمخاطبة المؤنثه). ومن ذلك الحديث الذى استعمل فيه الرسول عليه الصلاة والسلام لهجة يمنية، إذ قال: "ليس مِنَ امْبِرِّ امْصِيامُ فى امْسَفَر" جاعلا "أل" ألفا وميما كما هو واضح.

وقد أثيرت فى هذا الاجتماع الأول قضايا هامة، مثل الدعوة إلى الزنجية ومناداة بعضهم مثلا بأن الطواف حول صنم قبيلته أفضل عنده من الطواف حول الكعبة، وأن الأفارقة ينبغى أن يصلوا ويقرأوا القرآن بلهجاتهم المحلية. وقد أفاض دكتور سنغالى هو د. تشيرنو كا فى الرد على سخف هذه الدعوات ووَصَمها بالكفر. كذلك تناول د. صلاح مرحاب المسألة من زاوية أخرى، وأحسن كلاهما إحسانا كبيرا. وعقبت أنا قائلا إننا نحن المصريين مثلا كانت لنا حضارة عظيمة هى أول حضارة فى التاريخ (وعددت مظاهر إبداعها)، ومع ذلك فقد وليناها ظهورنا وأعطينا قلوبنا وعقولنا وحاضرنا ومستقبلنا للإسلام، فما معنى التمسك بالزنجية؟ وهل من الحكمة أن تأخذ الإنسان العزة بالإثم فيصر على أن يبقى فى الوحل والفضلات البشرية ويرفض يد من يريد أن يأخذه فيغسله من الأوضار ويلبسه الملابس النظيفة الكريمة؟ أيعقل أن نتمسك بالوثنية والهمجية ونفضلها على رقىّ التوحيد وعزة الإسلام؟ ثم قلت: أرجو أن تتنبهوا إلى هذه المفارقة ودلالتها. إن الاستعمار يسلط أذنابه ليدعوكم إلى الزنجية، فإذا ما تمسكتم بها انبرى هو فسَفَّه زنجيتكم هذه واصمًا إياها وإياكم بسببها بالتخلف والبدائية والعجز عن التحضر وعن مجاراته فى العلوم والفنون.

وهو بذلك يحطم ثقتكم بأنفسكم ويربككم ويورطكم فى متاهات لا مخرج منها. ثم قلت أيضا: أما هؤلاء الذين يدعونكم إلى نبذ العربية والارتداد إلى لهجاتكم القبلية فى العبادة وقراءة القرآن فإننى متأكد

أنهم لا يصلون ولا يعبدون الله لأنهم كفرة لا يؤمنون به. ولكنها خطوة على الطريق. لا يريدون أن يصارحوكم بحقيقتهم حتى لا تنصرفوا عنهم، بل يدخلون إليكم من هذا المدخل الخبيث كأنهم حرصاء على ذاتيتكم. ثم سألتهم: بأى لغة يكتب هؤلاء هذا الكلام؟ (وكان الكلام عن بعض الكتاب السنغاليين وما كتبوه، على ما ذكر د. تشيرنو كا، فى جريدة "الشمس: Le Soleil"، التى تصدر فى داكار. وطبعا أنا أعرف الإجابة). فقالوا: بالفرنسية. فعدت أسألهم: ولماذا يحرصون على الكتابة بلغة موليير وبلزاك ولا يكتبون باللهجات المحلية؟ أم ترى لغة فرنسا هى إحدى اللغات القبلية الإفريقية؟

الساعة الآن تقترب من الحادية عشرة والنصف مساء. ويكفى هذا الليلة. قبلاتى للعفريت علاء الدين، وللزهرة البرية التى ليست مغرمة بقبلات بابا: يمنى. والسلام عليكم– إبراهيم.

زوجتى العزيزة. يمنى الحلوة. علاء الدين الرجل الوسيم. السلام عليكم من بانجول.

هذا هو اليوم السابع لى فى بانجول، فاليوم الجمعة ١٩٨٧/٧/٢٤. وقد مضى يومان لم أكتب لكم فيهما أى شيء، إذ كنت مشغولا بالعمل والزيارات. العمل على ما يرام، والطلاب يفهمون ما نقول جيدا، ومعظمهم يحسن التحدث والتعبير عما يريد بالعربية. تغير برنامج العمل اليوم قليلا، إذ جمعنا الطلاب جميعا فى قاعة كبيرة وألقى كل دكتور (د. صلاح مرحاب، وأنا ود. تشيرنوكا ود. إشتاتو: بهذا الترتيب) محاضرة فى نصف ساعة، والفنى المصرى يصورنا بالفيديو. وسوف يأخد الشرائط معه إلى الرباط لتطَّلع عليها المنظمة وتحتفظ بها. وبعد المحاضرات أدينا صلاة الجمعة فى نفس القاعة، وصُوِّرَتْ أيضا بالفيديو. وقد طلبوا منى أمس أن أقوم بإلقاء الخطبة هذه الجمعة، غير أنى تنازلت عنها للدكتور تشيرنوكا، على أن أخطب أنا الأسبوع القادم إن شاء الله.

فى بانجول هنا عدد من المدرسين الأزهريين قابلت منهم اثنين حتى الآن: أحدهما من طنطا، وأصل أسرته من إبيار، ويعرف د. جابر البرَّاجة ود. إبراهيم الإدكاوى، ولم يكن يعلم أنهما قد أصبحا دكتورين. واسمه الشيخ الحامولى. كما وجدت أنه يعرف أحد زملائى القدامى الطنطاويين. وقد ذكر لى أن هذا الزميل يعانى فى زواجه. وهذا المدرس، وهو أصغر منى لا أدرى بكم سنة، يسكن فى بانجول نفسها، فى منتصف المسافة تقريبا بين الفندق الذى أنزل فيه والمدرسة الإسلامية العليا التى نلقى فيها المحاضرات.

أما الثانى، وهو أصغر منى بسنتين، فاسمه سعيد. وقد قابلته أمس فى المدرسة حيث قابلت الأول، إذ هى المدرسة التى يدرِّسان بالقسم العربى فيها. وهذا الثانى لا يسكن فى بانجول، بل فى قرية تبعد عنها نحو خمسة عشر كيلو مترا (فيما أخمن). وقد أصرّ على أن أذهب معه إلى بيته، فذهبت. وركبنا حافلة من أمام المدرسة بدالاسى لكل واحد، أقسمتُ أن أدفعهما، فتركنى أفعل، ونزلنا فى سيريكوندا، وهى مدينة هادئة. وكان علينا أن نمشى قليلا لنصل إلى موقف سيارات الأجرة لنستقل واحدة منها إلى قرية الشيخ سعيد. وفى الطريق عَرَّجْنا على السوق، وهو يشبه سوق حدائق القبة، ولكن فيه كل شىء بما فى ذلك السمك واللحم والزيت (وقد رأيت منه نوعين ذكر لى مرافقى أن الفاتح منها هو زيت الفول السودانى، وهو صاف جدا رغم أنه يباع بالمغرفة من أوانٍ مكشوفة، والداكن، وهو يشبه العسل الأسود، هو زيت النخيل، وهو أيضا صاف)... إلخ. وبعد ذلك أخذْنا تاكسيا حملنا إلى قرية الشيخ سعيد حيث يسكن فى منزل واسع الردهة

هرمى السقف الصاجى، وإن كان السقف مبطنا من الداخل بالخشب). وله طنف إذا جلست فيه هب عليك النسيم. وله كذلك حديقتان: واحدة أمامية، والثانية خلفية، وفيهما أشجار البرتقال وجَوْز الهند. وقد بنى الشيخ الأزهرى فى الحديقة الأمامية فرنا وكانونا، وعند وصولى كانت زوجته تطبخ المحشوّ، الذى كان يطلب الآكلين. كذلك وجدته يربى بطا ودجاجا ومعزى وخروفا للعيد الكبير، الذى اقترب (فى هذه الأيام نرى فى الشوارع من حين إلى حين أولادا يجرون خروفا أو شاة. وقد ظننت فى البداية أنهم يلعبون مع الحيوان كما يفعل الأولاد الإنجليز مع الكلاب، غير أنى أُخْبِرْتُ أنها الأضحية). وبعد أن توضأت وصليت الظهر والعصر (جمع تقديم فيما أظن) وُضِع الطعام: محشوّ ولحم ومرق وصنف رابع فيما أظن (نعم، تذكرت الآن: كان هناك جبن قديم) وخبز أبيض صاف كالبلور، بيتىّ. وقد كنت أخبرته أنى أريد أن آكل من الفول المدمس الذى اشتراه من أحد المحلات اللبنانية فى بانجول. فلما عرض علىّ أن يعد لى إلى جانب ألوان الطعام المذكورة طبقا من الفول قلت له: بل لن آكل إلا فولا وجبنا قديما مع هذا الخبز الجميل (عيش مرقرق مقرمش ومقبب). وكان طعاما شهيا حمدت الله عليه وشكرت الرجل وزوجته، التى اضطررت أن أرفع صوتى بالشكر لها من بعيد، لأنها فيما يبدو تخجل أن تسلم على الغرباء. وهى فيما أظن من قريته، وهى قرية قريبة من تلا (المدينة التى مررنا بها فى طريق العودة من ميت أبى الكوم نحن ود. الإدكاوى وزوجته متجهين إلى طنطا. أتذكرين؟). وهذا الأستاذ عنده ثلاثة أطفال: ولدان وبنت أكبرهم عمرو، والبنت أوسطهم. أما الولد الأصغر فقد ذكرتنى عيناه بعينى علاء الدين. وقد رفرف قلبى عندما رأيته، وقبلته أكثر من مرة. وكدت أن أقبله فى عينيه كما أفعل مع علاء الدين. غير أنى لم أستطع أن أقبله بالعشرات (ملحوقة، عند الرجوع إن شاء الله. اللهم احفظ لى علاء الدين ويمنى ولا تفجعنى فيهما يا رب، فإنك تعرف قلوب الآباء والأمهات. ألست أنت خالقنا ومُودِع الحب واللهفة فيها والعليم بالسعادة التى تملؤها ما سعدتْ فلذات أكبادنا، وبالنار التى تحرقها وتخنقها إذا... اللهم لا كانت "إذا" هذه ولا ما بعدها. واحفظ اللهم هذا الرجل وأولاده، وأسعده فى غربته، وأعده سالما غانما هو وكل المؤمنين وأطفالهم)، وقد أعطيت كلا من الولدين عشرة دالاسيات، فمال الصغير على أبيه وسأله همسا: هل ستضربنى؟ فقال له: لا.

وبعد الطعام خرجنا إلى الغابة. والقرية وشوارعها تذكرك برأس البر، غير أن البيوت كلها من طابق واحد. واجتزنا الطريق المرصوف خارج القرية وبعض الحقول التى رأينا فى كل منها امرأة أو اثنتين تمسك

كل منهما بيدها يدا خشبية طويلة فى نهايتها سلاح (بتعيير الفلاحين عندنا، وكما قال الشيخ سعيد)، وهى تغمز بها الأرض الميثاء (الأرض هنا رملية، والمطر ينزل من حين لآخر هذه الأيام كما قلت من قبل)، وقد حملت على ظهرها طفلها (وأرجو ألا تفهمى من كلمة "حقل" أنه حقل كبير، فإنه ليس أكثر من قيراط أو اثنين مع أن الأرض الصالحة للزراعة كثيرة جدا فيما سمعت ورأيت، بيد أنهم كما قيل لى كسالى. والمحصول الرئيسى هنا هو الفول السودانى). وهذه الحقول هى على مشارف الغابة. كذلك اجتزنا بعض الأراضى السبخة والمستنقعات الجافة التى كانت تمرح فيها العقارب الحمراء. وكانت العقارب عندما نقترب منها تسرع بالدخول فى جحورها (الذى أخبرنى أنها عقارب هو مرافقى، أما أنا فلم أحققها. ولا أعرف أن العقارب سريعة هكذا).

والآن الغابة، وهى الغابة الإفريقية التى كانت فى خيالى، وإن كتب لم أتوغل فيها لأننا بعد قليل وجدنا سورا من ألواح الصاج الموضوعة أفقيا يبدو أن الحكومة هى التى بنته لتحمى به بعض المشاريع داخل الغابة (لعلها أعمال الرصف). وكان النخيل فى كل مكان، والعشب والأشجار والنباتات التى تشبه البوص. وكانت هناك دائرة من الأرض مرتفعة قليلا محوطة بالنخيل، وجدنا عليها جمعا من الناس يشاهدون حلقة رقص إفريقية كانت دقات طبولها تأتينا من بعيد ونحن فى الطريق إلى الغابة، ولا ندرى من أين: كان هناك عدد من الفتيان والفتيات يرقصون على دقات الطبول الإفريقية المعروفة بنغماتها السريعة المتتابعة الغريبة. وكان الجميع يهزون صدورهم وأردافهم إلى خلف وقدام كما نرى فى التليفزيون وفى الأفلام. وكان الشبان عراة الصدور، ولا يلبسون إلا الشورت، أما البنات فكن يلبسن ملابس عارية قصيرة (فيما قد يخيل إلىَّ الآن)، ولكن من غير دعامات صدر. واحدة منهن فقط كانت تلبس بنطلونا أصفر. وكان الشبان أحيانا يتخذون وضعا يشبه الاضطجاع معتمدين على مرافقهم وأفخادهم اليمنى، وتدور كل بنت حول واحد منهم، وهو يرقص على نحو يشبه التشنج، وأحيانا أخرى يقف أكبرهم فى وسط الحلقة وتحيط به البنات فى دائرة تحيط بها داثرة أخرى أكبر من الشبان، وهم جميعا يتحركون فى دائرة، وكنت أسمع البنات يغنين بما بدا لى أول الأمر أنه "سَمْرَا يا سمرا". فقلت فى نفسى: الله! إنهم يغنون أغنية كارم محمود! لكن الشيخ الأزهرى ضحك وقال: إنهم يقولون "التعلب قال لى". ولما طلبت منه أن يكمل ترجمة باقى الكلام قال إننى لا أستطيع أن التقط فيها إلا "التعلب، التعلب". وكنت قد تنبهت أكثر إلى ما تقوله البنات فاستطعت أن

أميز هاتين الكلمتين: "سامبايا سامبايا"، ولما عدت إلى بانجول آخر النهار سألت أحمد السيراليونى، الذى زارنى للاتفاق على ميعاد رحلة ننوى أن نقوم بها معا فى أنحاء جامبيا فى عطلة هذا الأسبوع، وذكرت له هاتين الكلمتين أجابنى بأنه لا علاقة لهما من بعيد أو من قريب بالثعلب. كذلك سألت أستاذا معنا جامبيا، ولكنه هو أيضا لم يعرف معناهما. ترى هل تعرفين أنت؟ (كنت قد توقفت هنا ومضيت إلى المحيط، وكانت الساعة السابعة والربع قبل المغرب. وهناك قابلنى أحمد، فسألته مرة ثانية فقال إنهما قد تكونان من لغة أخرى فى جامبيا لا يفهمها. كذلك سألت فتى يعمل بالفندق فقال إنه لا يعرف لهما معنى).

عود إلى الشيخ سعيد نفسه. لقد لاحظت أنه رغم أنه ملتح (لحيته على شكل خط قريب من حافة وجنتيه) فهو يدخن. كذلك فهمت أنه كان فى مصر يتاجر فى التراب المجرف من الأرض. كما أخبرنى أنه قد ضرب بعض الجامبيين هنا. وقبل أن أسأله هل هو ملتح عن فرط تدين (على حسب مفهوم الناس عن الدين والالتحاء) وجدته يخبرنى أنه وجد أن الناس هنا تتبارك باللحية فرباها، وأنه يعقد الزواج. وقد عقد قران شاب من بنت كان له منها ولد عمره سنتان. ويبدو أنه يحصل على بعض الهدايا أو الأجر فى مقابل هذه الأشياء. كذلك فللأمر، كما أخبرنى، مكسبه السلبى، فهو لا يخاف أن يسرق أحد مثلا شاته التى يربطها فى الشجرة فى الشارع، لأن حاجة الشيخ (وهذا تعبيره) لا تُسْرَق (لعله يقصد أنهم يخافون أن يدعو عليهم).

والجامبيون لا يستحون أن يطلبوا منك مالا، ولا تظنى أنى أقصد الشحاذين. كنا عائدين من الغابة، فوجدنا أنفسنا فى وسط بعض الحقول، وانتهى بنا المطاف إلى حقل صغير ملتصق ببيت كان صاحبه عند سوره المنخفض، وبداخل الفناء امرأتان: واحدة نادتنا أنْ: تعاليا من هنا (فلا نقفز خندقا كان محفورا هناك لبعض المشاريع)، فلما اجتزنا الفناء وكدنا أن نخرج من الباب المنخفض إذا بها تطلب منا money. وكان مع الشيخ سعيد قرن مثل قرن الشطة، فمد يده به إليها، ولكنها رفضت وأخذت تلحّ فى طلب الـmoney. أما المرأة الثانية فقد كانت تعجن شيئا فى ماجور، وكانت تنظر إلينا وتبرطم لا أدرى بماذا.

يبدو أن العامة هنا يكرهون الأجانب ويسمونهم: "طوباب". وقد حُذِّرْتُ أكثر من مرة أن أمشى وحدى ليلا فى أى شارع مظلم. وكنا عائدين من الغابة، وكان فى الطريق بعض الأطفال فقالت واحدة منهم وهى تشير إلىَّ: "طوباب"، فكدت أن أقول لها: "طوباب فى عينك قليلة الأدب!"، ولكنى خفت أن تجيبنى: "أهو أنت!". وكان فى تلك القرية بعض المصريين واللبنانيين، وفيها مسجد يبنى شارك مهندس

مصرى شاب رجع إلى مصر فى تصميمه وشراء الطوب لبنائه. وقد ذكره الشيخ سعيد بالخير. واللبنانيون يسيطرون على التجارة الكبيرة هنا ويعيشون كالملوك كما قيل لى.

وقد رأيت فى القرية البيوت التى يعيشون فيها، وهى تشبه البيوت الإنجليزية الكبيرة فى القرى. وأمامها السيارات الفخمة، كذلك تجدين هنا الموريتانيين بكثرة. وإذا كان العامة الجامبيون يكرهون الأغراب فإن هؤلاء سيئو الرأى فيهم. كنت واقفا مع أحد الموريتانيين (وكل من قابلتهم حتى الآن منهم يتحدثون العربية)، وجاء ذكر هذا الأمر، فرأيته يقول لى: إنهم حيوانات ياكلون ويشربون، ثم لا شىء آخر. فقلت: ألا يعرفون الحلال والحرام؟ قال: لا، ما فى شيء عندهم حرام!

نسيت أن أقول لك فى ثانى خطاب إنه توجد قريبا من الفندق بعض الغابات الصغيرة على المحيط. وقد عنَّ لى أن أجتازها فى طريقى إلى الماء، وكانت الأرض كلها مغطاة بما يشبه ورد النيل الذى يسد بعض الترع والأنهار أحيانا عندنا فى مصر. وكانت هناك مماشٍ بينها. ولكنى فوجئت أن الغابة كلها عبارة عن مخرأة كبيرة، فرجعت ولم أستمتع بالغابة وأشجارها وظلالها.

ذكر لى أحمد أمس أن بعض الأفارقة يتناولون شرابا معينا فلا يستطيع الرصاص ولا السيف لهم شيئا، وأكد لى أنه رأى ذلك بنفسه. وعاد إلى هذا الموضوع اليوم، وكان معه شاب فى مثل سنه من سيراليون أيضا (ولكن لا يتكلم العربية). وكان ردى هو: ألا يوحى لك بشيء أن هذا الذى رأيته لا يؤثر فيه الرصاص ولا السيف إنما يضربه زميل له لا أى إنسان آخر؟ ثم بينت له أن اعتقادى هو أن فى الأمر خدعة أو خفة يد مثلا، وشرحت له ما يفعله الحواة عندنا وفى أوربا حين يدخلون امرأة صندوقا، ويغرزون فى جنبات الصندوق السيوف، التى تخرج من الناحية الأخرى، بل يقطعون الصندوق نصفين بالمنشار، فيكون فى نصف منه رِجْلا المرأة بارزتين من فتحتين فى طرفه، وفى النصف الثانى رأسها ظاهرا من الطرف المقابل. فأخبرنى زميله أن بعض القبائل الإفريقية يخرج الواحد منهم طرف لسانه فيقطعه آخر بالسيف ثم يلقيه لا أدرى فى ماذا، ثم يستعيده ثانية، وأنهم يخرجون أعينهم من محاجرها ويلعبون بها. ولعله ذكر أن رَخَمًا انقض على عين من هذه العيون وأكلها (يَعْ!)، وفى رأيه أن هؤلاء الناس أنانيون لأنهم يحتفظون لأنفسهم بهذه الأسرار لا يفشونها. ولو كانوا أَفْشَوْها لما استطاع الأوربيون أن يهزموا الأفارقة ويحتلوا بلادهم. وقد أجبته بأن الأوربيين، الذين ليس عندهم هذه الأسرار، هم الذين يحرزون التقدم، وينتصرون ويخترعون الآلات

والمَكِنات وسفن الفضاء والغواصات، ويتوصلون إلى أدوية الأمراض التى تقصف أعمار الناس، أما هؤلاء الذين يعتقد هو أن عندهم هذه الأسرار العجيبة المعجزة فإنهم متخلفون جهلاء عاجزون لا يستطيعون أن يطعموا أنفسهم إلا بأن يمدوا أيديهم للشحاذة أو بالعمل الشاق المرهق، والأمراض تفتك بهم. ثم استطردت فكررت ما قلته أمس له من أن الأفارقة يستعينون بالسحر فى كرة القدم، ومع ذلك فإن الأهداف تدخل فى مرماهم بسهولة شديدة، ثم سألته: علام يدل ذلك؟ ولماذا لم يفز الأفارقة مرة بكأس العالم بالسحر لو أن للسحر تأثيرا؟ وشدَّدْتُ له على أنه لا ينبغى الإيمان بعد الله سبحانه وتعالى إلا بالعلم: الله فوق، والعلم تحت. هذا هو طريق الإسلام، وهو الاتجاه الذى ألح عليه الرسول الكريم صلوات الله عليه. ومع ذلك كله فإنه شاب يرجى منه الخير. وهو يؤكد لى برغم هذه القصص التى يحكيها أنه لا يعتقد فى الأحجبة أو التعاويذ.

أول أمس كان افتتاح الدورة رسميا. وقد حضرتْ وزيرة الصحة (واسمها لويز أنجاى)، وحضر مدير التربية (لغياب وزير التربية). وهذه الوزيرة هى أخت الزوجة السابقة لرئيس الجمهورية (مستر داودا جوهارا)، التى توفيت. وهى نصرانية. وسمعت بعض الأساتذة يسمونها ضاحكين: "المرأة الحديدية". وفهمت منهم أن الغرب يسندها، وأنها كانت قبلا وزيرة التربية. وهى تشبه د. حكمت أبو زيد (على أفريقى). وتتكلم الإنجليزية بثقة (ولكن على أفريقى برضه). وكان من المضحك أن يلقى د. دياو السنغالى (وهو أحد المديرين فى المنظمة) خطبته، التى يدعو الله فيها أن "انصرنا على القوم الكافرين"، والوزيرة النصرانية إلى جانبه (كانت الخطبة بالإنجليزية، التى كان ينطقها بلكنة فرنسية إفريقية). فقلت لأستاذ جامبى إلى جوارى: "وانصرنا أيضا على القَوْمات الكافرات"، فضحك (فى أكمامه). وقد أثنى مدير التربية على الخطبة العصماء وعلى الإنجليزية الرائعة التى كتبت بها، ونصح الحاضرين (!) أن تترجم إلى العربية وأى عمل أدبى وفكرى رائع ينبغى قراءته والاستفادة به فى خدمة الإسلام. ثم اكتشفت فى النهاية أنه هو أيضا... نصرانى. أى أن أكبر مسؤولين فى الحكومة الجامبية (لعلهما المسؤولان الوحيدان) حضرا هذه الدورة الإسلامية هما نصرانيان. كما حضر سفير السنغال. وبالمناسبة فقد علمت أن رئيس الجمهورية كان نصرانيا (رغم أن أسرته مسلمة، وأبوه شيخ أو ما إلى ذلك)، وكان ذلك بسبب تعلمه فى المدارس الأجنبية النصرانية فى جامبيا (وبريطانيا). ثم لما تولى الحكم رجع إلى الإسلام، وأن زوجته الحالية مسلمة،

وأنها قد حجت. هنا كنيسة كبيرة فى بانجول، ونشاط تبشيرى، ولا أدرى مدى نجاحه. أظن أن هذا يكفى اليوم. ويا علاء الدين، اسمع الكلام. ويا يمنى، كيف أنت؟– بابا.

زوجتى العزيزة، يمنى، علاء الدين، سلام الله عليكم.

اليوم السبت ٢٥/ ٧ ، أى أنى بعيدٌ عنكم منذ تسعة أيام، فقد قارب اليوم أن ينصرم. ولم يكن هناك عمل اليوم ولن يكون غدا، فإنهما إجازة هنا كما فى بريطانية والدول الأوربية، إذ يشتغل ا لناس إلى قريب من الصلاة ثم ينصرفون. ولا أدرى لماذا لا يزالون يحتفظون بهذا النظام بعد أن استقلت البلاد ورحل الأوربيون المستعمرون. إن الأغلبية الساحقة هنا مسلمة (أظن أكثر من ٩٠%). ومع ذلك ينبغى ألا ننسى أنه فى بلادنا ما زال كثير من المحلات، وبخاصة محلات القطاع العام والوِرَش، تأخذ إجازتها يوم الأحد. لا مانع، بل ربما كان أفضل، أن يكون هناك يومان إجازة، ولكن يجب ألا يكونا السبت والأحد بحال، فهذان هما إجازتا اليهود والنصارى على التوالى. الجامعة تأخذ فى الصيف السبت إجازة، ويا ليتها أخذت بدلا منه الخميس، كما تفعل بعض المصالح الحكومية الأخرى فيما أظن.

والآن، أحكى لكم ماذا فعلتُ اليوم. نزلت قبيل العاشرة فتناولت فى صالة الطعام بالفندق فَطُورى، ثم خرجت إلى السوق، الذى يبعد نحو كيلو متر، فى لهيب الضحى، لأشترى بعض الطعام المعلب من محل لبنانى هناك، لأن الطعام الإفريقى أصبحتُ أعافه بعد أن أكلت منه عدة مرات، وكان شهيا فى البداية. وقد اشتريت من ذلك المحل، واسم صاحبه جورج عقل، علبة فول مدمس جاهز (٥ دالاسيات) وعلبة حمص مهروس بالطحينة (٧ دالاسيات) وعلبة فاصوليا إيطالية (بدالاسيين ونصف. أرخص شىء كما ترين، ولا أدرى سر رخصهما). وقد أكلت من الفول والحمص اليوم بعد أن أضفت إلى كل منهما بعض الزيت من زجاجة اشتريتها من نفس المحل (١٢ دالاسيا ونصف). وهو زيت خضراوات بريطانى. ولم يعجبنى طعمه كثيرا (هل تذكرين زيت الذرة البريطانى الذى كنا نشتريه فى أوكسفورد ولم نحبه؟). كذلك أكلت من الجبن الشيدر الذى حدثتكم عنه فى خطاب سابق. وكنت قد اشتريت أمس ثلاث زجاجات مشروبات خفيفة، كل منها لتر ونصف (١٠,٥ دالاسيات الواحدة). وقد أتيت على واحدة أمس، ونصف الثانية اليوم. والثالثة، وهى كوكاكولا، لم أذقها بعد، وإنما قدمت منها للأستاذ ماسخن كا (وليس ما سونا كا كما قيل لى فى مصر، وكما لا أزال ولا نزال كلنا نناديه) كوباكبيرا، بعد أن كنت قدمت له كأسا من عصير الليمون ولاحظت أنه لم يستسغه. وقد جاء الأستاذ كا قبل قليل ليدعونى إلى حضور حفل فى إحدى الجمعيات الإسلامية فى سيريكوندا غدا (الأحد)، قبل المغرب. وكنت قد اتفقت اليوم مع أحمد السيراليونى أن نذهب

غدا فى رحلة طويلة نطوف بها بأكبرعدد مستطاع من مدن جامبيا وقراها. وكان فى نيتى ألا نعود قبل الغروب، حتى نستغل اليوم كله، غير أنه أصبح عليَّ أن أعود هنا قبل الخامسة بما يسمح لى أن أغتسل من الحر والعرق وأبدل ملابسى لأن هذا هو الوقت الذى اتفقنا على أنه سيمر على فيه الأستاذ كا. وعند عودتى من السوق فى الصباح أخذت حماما آخر، فإنك هنا إذا نزلت إلى تحت ولو لدقائق وعدت فلا بد أن تضيقى بنفسك وبالحر، ولن يطفىء هذا كله إلا الماء والصابون. ثم جاء أحمد، وخرجنا نبغى النهر، غير أن الطريق أخذنا حول بانجول حتى وصلنا إلى مرفإ المعدية، التى وجدناهم يصلحونها من عطل ميكانيكى، ووجدنا الناس والسيارات فى الانتظار، فبقينا قليلا عند المحيط نتكلم، ثم عدنا وقد ضاعت فرصة الركوب إلى الشاطئ البعيد (٣٥ دقيقة بالمعدية) الذى تظهر أشجاره عند الأفق غامضة مغرية. وكانت عودتنا عن طريق الشاطئ حيث وجدنا قوارب الصيد يستعد أصحابها للخروج للصيد بعد قليل حتى الصباح، ووجدنا بعضهم ينظف نوعا من الأسماك أملس رماديا مثلث الشكل، رأسه أكبر من جسمه، ونراه فى أفلام التليفزيون (فى "عالم البحار" و"العلم والإيمان" وما أشبه). وكانوا يخرجون أجزاء منه حمراء تشبه الكبد ويلقونها بعيدا. كما وجدنا عدة أكوام صغيرة من سمك فضى، وبعضه متناثر قد رماه أصحابه لسبب أو لآخر، وطيور النورس تحط عليه وتنقره أو تحمل أجزاء منه فى منقارها وتطير.

وقد رجعت إلى الفندق قبيل السابعة، وكنت مرهقا وأحتاج كالعادة إلى حمام، وقد جاء أحمد قبل قليل محضرا ثلاثة قمصان لى كنت قد أعطيتها إياه ليكويها. وقد رفض فى البداية أن يأخذ أجرا، ثم أعطيته الثلاثة دالاسيات التى طلبها، وشكرته.

كنت قد وصفت لكم الفراشات الكبيرة الخضراء المخططة والمنقطة بالأسود. وعندما تأملتها بدا لى أن لونها الأخضر هو أخضر فستقى فاتح، أما اللون الداكن فأغلب الظن أنه أخضر مائل إلى السواد. على كل حال كانت العرب قديما تطلق على الخضرة "السواد"، وهناك فراشات بيضاء كالتى عندنا. وقد رأيت فراشا أبيض، ولكن حواف أجنحتة السفلية برتقالية اللون، ولا يظهر ذلك إلا عندما تفرد الفراشة جناحيها تماما. سبحان الخالق المبدع! أى ثراء! وأى إعجاز! من أين يأتى هذا كله؟ وإلى أين يذهب الفَرَاش؟ النسيم، البحر، الحر، المصريون، الاستعمار، الحب، البغض، الفنون، الطير فى جو السماء، الحروب، الغابات، الأطفال. رموش علاء الدين ويمنى وهما نائمان كيف غرست هذه الرموش فى مواضعها؟ وما السر الذى

يجعلها تهز قلبى كلما تأملتها؟ والنمو: أنت تأكلين وتشربين وتتنفسين، فتكبرين، ثم بعد عمر طويل تموتين. ويبكينا من يبكى، ويفرح من يفرح. ثم بعد قليل لا يعود أحد يحس بنا، اللهم إلا إذا ترك الواحد منا خلفه شيئا يشغل الناس، ككتاب نافع، أو فتحٍ مدوٍّ، أو جريمة نكراء تسجل فى الكتب.

الناس هنا يصطادون بخيط من البلاستيك، يمسكون بين أصابعهم مباشرة من غير عصا ولا غماز، ولم أر أحدا يشد سنارة من الماء لأرى كيف يفعلون ذلك، أو يرمى بها فى الماء لأعرف كيف يتسنى لهم ذلك من غير عصا مثلا.

لاحظت أن كثيرا من النساء هنا يضعن فى أفواههن أعوادا صغيرة، ويغلقن أفواههن عليها ويتركنها هكذا وقد برزت إلى الخارج، وقد سألت أحد الجامبيين، وكنا عائدين من المدرسة التى نحاضر فيها، فقال ماسونا (ما سخن) كا: إنها سنة عن رسول الله. ألا تعرفها؟ قلت: تقصد أنها سواك؟ قال: هو ذلك. قلت: فلِمَ لا أراها فى أفواه الرجال كثيرا إذن؟ وضحكنا. وقد سألت الشيخ سعيد: هل رائحة أفواه السود إذن جميلة وقوية؟ قال: أولا ترى كيف أنها بيضاء ونظيفة؟ وقد تحدثت فى هذا الموضوع أمام د. تشيرنوكا السنغالى، فأخرج من جيبه سواكا صغيرا دقيق الجِرْم فى حجم عود الكبريت مرتين تقريبا، وقال: هكذا؟ فقال د. مرحاب: آه، إننا نسميه عندنا فى المغرب: "عرق السوس" فظننت أنه العرقسوس الذى نعرفه فى مصر، وأن النساء هنا يضعنه فى أفواههن يمصصنه لتحلية ريقهن. قال: لا. فلما قلت له: تقصد أنه العِرْق (العُود) الذى يقضى على سوس الأسنان؟ أجاب: نعم بالضبط.

عندما ذهبت مع الشيخ سعيد إلى قريته لاحظت أنه لا يوجد كمسارى بل كمسارية. وهى تجلس فى مواجهة الصاعد داخل حجرة من الأسلاك المتقاطعة، فتضعين لها الأجرة فى نقرة على اللوح الذى أمامها، فيكاد الهواء الأتى من ورائها أن يطيرها، فتعطيك التذكرة (لا تظنى أنه لا بد أن يطير الهواء الفلوس حتى تعطيك الكمسارية التذكرة، بل أنا أصف ما حدث لى). وقد ذكر لى الأخ سعيد أن النساء أحيانا يقدن الأوتوبيسات. معنى ذلك أنهن تفوقن على نساء بريطانية، فإنى لا أذكر أنى رأيت إحداهن تقود أوتوبيسا، إلا مرة واحدة، وكان ذلك ليلا، عندما كنت فى مستشفى هيدنجتون عند ولادة علاء الدين فيما أظن) وأين من عينى هاتيك المجالى؟ هل تذكرين كيف كنا نحرفها ونقول عندما نذكر المجارى فى مصر: أين من عينى هاتيك المجارى؟

سألت د. مرحاب، الذى إذا كانت هناك مناسبة فى المدرسة لبس الطربوش الأحمر والزعبوط والبلغة المغربيين فذكرنى بالملك الحسن، عن السر فى تآخر الملك الحسن عن الملكة إليزابيث عندما زارت المغربى منذ عدة سنوات (ونحن فى بريطانية) حتى إنها جلست على سور منخفض من التعب، وهب التليفزيون البريطانى والصحافة البريطانية ينتقدان الملك المغربى لتجرؤه على معاملة ملكتهم بهذا الشكل. فقال: إنه أحد تقاليد القصر الملكى المغربى. يعطى الملك ميعادا معينا، ولكنه لا يذهب إلا بعد فواته بوقت. قلت: صحيح. "التُّقْل" صنعة. ثم قلت له: إننا فرحنا لأنه ضايق الإنجليز وجعلهم يخرجون عن برودهم المشهور، فأخبرنى أن الملك الحسن زار بريطانيا مؤخرا، فاحتفَوْا به هناك كما لم يحتفلوه من قبل بغيره، إذ ذهبت الملكة بنفسها لمقابلته فى المطار، وأنزلته فى أحد القصور الملكية، وهيأوا له جو القصور الملكية المغربية. فإذا صح ما حدثنيه د.مرحاب فإنه يبين لنا حقيقة الخلاف الذى ثار بين من تناولوا زيارة أحد الرؤساء العرب إلى بريطانية منذ سنة أو أكثر، ولم يقابله أحد من الأسرة المالكة، ولا حتى رئيسة الوزراء فى المطار، بل قابله هناك أحد كبار الموظفين فى القصر. لقد قال بعضهم إن هذه تقاليد استقبال الملوك والرؤساء الأجانب فى بريطانيا. ولكن يبدو أن الأمر على خلاف ذلك. على كل حال فقد قلت للدكتور مرحاب: ولكن ما سر هذا الاحتفاء الكبير بملككم؟ لا بد أن فى الجو شيئا! لا تنس أنه مجهِّز زيارة القدس. فلعل هناك شيئا من هذا القبيل، أو يتصل بهذا الأمر. ومع ذلك فإن ملككم عجيب. إنه هو الذى أشرف على الإعداد لزيارة السادات للقدس، ثم كان أول من قطع علافته به غداة الزيارة. قال: إن الرجل (بتاعكم، اسمه إيه ده؟) قد صرح للصحافة بما لم يكن ينبغى أن يصرح به، فكان لابد للملك أن يتنصل من الأمر كله. قلت: تقصد التهامى؟ قال: نعم.

وبالمناسبة فالرئاسة هنا بالانتخاب من بين عدة مرشحين، وقد نجح الرئيس داودا جاوارا مؤخرا. وقد لاحظت أن أصغر أبناء الشيخ سعيد فوق حاجبه الأيسر ندبة صغيرة، فقال لى إنه خرج يهتف للرئيس جاوارا، فتبادل معهم أنصار أحد المرشحين الآخرين الطوب، فأصابته طوبة فى جبهته. قلت له: اذكرها له عندما يكبر حتى تكون ذكرى. وبالمناسبة أيضا فأولاده الثلاثة يتكلمون لغة الأولوف، وهى لغة محلية. وقد طلبت من الولد الأكبر أن يكلمنى بها، ولكنه خجل. المهم أن جامبيا تسبقنا فى مجال السياسة، إذ

تختار رئيسها بالانتخاب، أما فى الدول العربية جميعا وفى تلك البلاد ذات حضارة السبعة آلاف سنة فإنهم (فيما عدا لبنان) لا يعرفون شيئا اسمه انتخاب الرئيس. إنهم لم يرتقوا بعد!

تغيير العملة فى السوق الحرة هنا يتم على الرصيف فى وضح النهار. البنك يأخذ منك الدولار بسته دالاسيات تقريبا. أما على الرصيف قد تبيعينه بسبعة دالاسيات وثلاثين بوتوتو، وقد اندببتُ أول ما وصلت فحولت مائة دولار من فندق الأطلانطك بستة دالاسيات للدولار تقريبا، وضاع منى فيها ١٢٥دالاسيا (اقسميها على سبعة وربع ثم اضربيها فى ٢ يخرج لك ما ضاع علىّ بالجنية المصرى) حار ونار وغضب الجبار عليك يا بنت لا أدرى ماذا بالأولوف (بنتو، أختو، ستو، جدتو، أى حاجة) لأن التى غيرت لى فى الفندق فتاة، والذين يتاجرون فى العملة معظمهم صبيان: كل اثنين معا. واحد معه الآلة الحاسبة، والثانى معه شنطة محشوة بالأوراق المالية المختلفة. وقد فاز بتغيير ٦٠٠ دولار للدكتور مرحاب و٢٠٠ لى شاب صغير ذكرنى بأخيك على. وكان ألبقهم وأكثرهم ثرثرة، فكانت الصفقة من نصيبه. وتصبحون على خير-إبراهيم.

زوجتى العزيزة، يمنى وعلاء الدين أحلى زهرتين فى الوجود. سلام الله عليكم من بانجول.

كيف حالكم جميعا. بدأ اليوم الأسبوع الثانى من الدورة. واليوم الاثنين ١٩٨٧/٧/٢٧م، وها قد مر علىَّ أكثر من عشرة أيام غائبا عنكم، فلعلكم مسرورون وراضون ولا تحتاجون شيئا، ولعل يمنى وعلاء الدين يلعبان بالدراجة، التى أنوى إن شاء الله عندما أعود أن أشترى لهما، كما طلبا منى، واحدة أخرى أكبر. طبعا لا واجبات دراسية كالتى كنت أكلفكما بها ولا تؤديانها إلا بطلوع الروح، روحى أنا لا روحكما أنتما، فأنتما مكاران لا تعجزان عن سَوْق الأعذار الملفقة، وإذا لم تسعفكما الأعذار أخذتما ما كلفتكما به وأهملتماه وانصرفتما إلى اللعب فى الحجرة الداخلية. وبينى وبينكما أنا كنت أغضى عن هذا عامدا متعمدا، إذ إن هدفا على الأقل من تكليفى إياكما بمثل هذه الواجبات قد تحقق، ألا وهو أن تخرجا من حجرتى وتتركانى فى حالى أقرأ وأكتب فى سلام. أمرى إلى الله. ها أنا قد كشفت سرى!

لم أكتب إليكم أمس لأن اليوم كان مشحونا. جاء أحمد فى الصباح قبل السابعة، فأفطرنا فى الفندق (أكلنا نحن الاثنين فَطُورى)، وجهزنا بعض الشطائر، وخرجنا، فانتظرنا الأتوبيس حتى مللنا. فقلنا: نذهب إلى المعدية ونغير رحلتنا حتى نستطيع أن نعود مبكرين قبل الخامسة لأذهب مع الأستاذ ماسونا (ما سخن) كا إلى سيريكوندا لاجتماع جمعية التقدم الإسلامى هناك.

وما إن أصبحنا فى منتصف المسافة بين المحطة التى كنا واقفين عندها والمحطة التى قبلها حتى رأينا الحافلة التى كنا ننتظرها (لتأخذنا إلى مدينة لا أذكر اسمها بالضبط الآن وبجوارها غابة كبيرة كنا ننوى زيارتها) مقبلة، فكنا كالذى رقص على السلم (بالتعبير المصرى الدارج) أو (بتعبير طه حسين نقلا عن الفرنسيين) كالذى سقط بين كرسيين، فلا نلنا بلح الشام ولا عنب اليمن! وعند المحطة التالية وجدنا أوتوبيسا ثانيا خطه ينتهى عند قرية بعد سيريكوندا بقليل، فقررنا بسرعة أن نغضى البصر عن المعدية ونأخذ هذا الأتوبيس ونترك أنفسنا للظروف هناك.

وكان الجو لطيفا (لطيفا على الأقل بالنسبة له اليوم وأول أمس بل وكل يوم، ما عدا يوم وصولى فقد كان معتدلا فيما أذكر). ولما نزلنا عرَّجنا على القرية (الجانب الأيمن فيها)، ومررنا بخياط قد علق على أبواب دكانه جلاليب جامبية مزخرفة جميلة، فسأله أحمد عن الثمن، فقال له: إن الأجانب (يقصدنى) جيوبهم محشوة بالمال (كانا يتكلمان بلغة محلية)، ثم أعطاه السعر: خمسين دالاسيا وربما أربعين لا أذكر

بالضبط، فقال له أحمد: قد نمرّ بك فى طريق عودتنا. ثم بعد أن ابتعدنا ذكر لى أننا سنبدأ معه من خمسة عشر، ونقف عند عشرين، فقلت له: إذا كان الأمر كذلك فإنى سأشترى خمسة جلاليب أو أكثر. ولكن عند عودتنا سأله أحمد ثانية عن الثمن، فقال عن جلباب لى: مائة وخمسون دالاسيا، فلم نشتر بالطبع شيئا. وبالمناسبة فالقماش عادى بل أقل من العادى! (طبعا أنتِ الآن عرفت اللعبة: اقسمى على سبعة وثلث، ثم اضربى فى اثنين وربع تقريبا ينتج لك الثمن بالجنية المصرى. هيا!). ولا أدرى سر هذا التفاوت الكبير بين السعرين. ربما كان هناك سوء فهم. وبعد أن تركنا الحائك أول مرة انطلقنا إلى الحقول: حقول واسعة (الحقيقة ليست كلها حقولا، ولكن هكذا أسميها لتسهيل الأمور) كلها مكسوة بالخضرة: أعشابا وشجيرات ونخيلا وأشجارا. والبيوت متناثرة هنا وهناك بين الحين والحين البعيد، والطرق الضيقة (المدقات) تلتوى كالثعبان بين هذه الخضرة الشاملة رملية بيضاء مائلة قليلا إلى الرمادى.

وأحسب أنه حتى فى الليالى المظلمة يستطيع السائر أن يبصر طريقه بوضوح. ولا تسألى عن الهدوء والسكينة اللذين كانا يغمران المكان، فقد انقطعت الرِّجْل (إلا أرجلنا طبعا، وإلا فلو كانت هى أيضا انقطعت فكيف كنا نمشى؟ أتذكرين يوم أن سمع علاء الدين هذا التعبير أول مرة وأنا أكلمك، ففهمه على معناه الحرفى، وأخذ يتساءل مستغربا: مَنْ يا بابا الذى انقطعت رجله؟ فشرحت له المقصود، مضيفا بهذا إلى ثروته اللغوية تعبيرا جديدا ومفيدا). وكانت السماء تَغِيم قليلا ثم تظهر الشمس، ولكن ليست الشمس الحامية التى نعرفها هنا فى بانجول، وكان النسيم يهب بين الحين والحين، فيضيف إلى لطافة الجو لطفا ولطفا. وكنا نتوقف من وقت لآخر تحت شجرة ضخمة تفرش ظلالها الوارفة على العشب الأخضر الجميل: ولم تكونى تسمعين إلا زقزقة عصفور أو تغريد بلبل أو صوت فرخ الغيط العميق القصير المتتابع ببطء: "أو، أو، أو، أو"، وقد رأيت يمامتين هناك تطيران فوق رؤوسنا، كما كنا نرى أبا قردان، الذى كان قد انقطع سنوات عن مصر هو والغراب، ثم عادا هذه الأيام ولكن ليس بالكثرة القديمة. أبو قردان هنا فى حجم أبى قردان المصرى تقريبا، أما الغراب الجامبى فهو أكبر (مرة ونصفا على الأقل). وكانت الفراشات تلعب فى هذا السكون الشامل لا يزعجها شيء: فراشات خضراء (كالتى وصفتها لكم من قبل مرتين. وبالمناسبة فالفراشات التى وصفتها أول مرة هى شيء آخر غير التى وصفتها فى المرة الثانية، وإن كنت ظننت أنى أخطأت. وهذا النوع من الفراشات له أكثر من لون)، وفراشات صغيرة (أصغر من فراشاتنا) صفراء، بهيجة الصفرة، وأخرى

بين البرتقالى والطوبى، ورابعة بيضاء فى حجم فراشاتنا. ولكن لم أر حتى الآن فراشاتنا الملونة بالأحمر البنى والمزخرفة بالأبيض والأسود. قلت لأحمد ونحن نقف تحت شجرة هناك وسط هذا السلام الذى بدا وكان أحدا لم يطأ المكان من قبل وينعم به: إننا كرجلين قد هبط لتوهما من القمر! وشعرت بيد الله من حولى فى كل مكان: تصنع الفراشات وتلونها هذا التلوين البديع وتذرّ عليها ذَرُورًا زخرفيا ساحرا، ثم تمسك بها بحنان وتدفع بها إلى الهواء بعد أن تبث فيها الثقة بنفسها! وتشق الأرض للأعشاب البرية الندية، وتأخذ بهاماتها وترفعها فى الفضاء، وتربِّت عليها فتكسبها الملاسة واللمعان! وتحرك النسيم تحريكا لطيفا فيكسر من جبروت الحر ويطامن من قسوته! لو أنى أستطيع أن أدعو الله دعوة مستجابة لى ولك وللطفلين البريئين ندخل بها الجنة من غير حساب فلا نمر بالموقف وأهواله ومساءلاته! إذا كان كل هذا الجمال فى الدنيا فكيف ستكون جنة الأخرة؟ إننى سأكون سعيدا لو بعثت فى مثل هذا المكان على ما هو عليه! المهم أن أنفذ بجلدى من الحساب ولهيب جهنم. ولعل الله أن يرحمنى ويرحمكم ويكون كلامى هذا دعوة مقضيّة بإذنه تعالى! أما البيوت المتناثرة التى كنا نمر بها بين الحين والآخر فهى مسقوفة بالصاج المضلع على هيئة هرم، ويحوطها سور إما من الأخشاب أو أعواد الحديد الموصولة بالأسلاك الشائكة. وبداخل الفناء الأعشاب والرمال، وقطعة مزروعة من الأرض صغيرة. وهذه القطع الصغيرة المزروعة كنا نمر بها بين وقت وآخر. ولكن أغلب الأرض كما رأيت حتى الآن أعشاب وشجيرات أو غابات (فى الطريق بين بانجول وسيريكوندا توجد منطقة مستنقعات هائلة فيما هو ظاهر من الجزء المرئى فيها، وهى مغطاه بأشجار فى حجم أشجار الجوافة الصغيرة متضامة وأظن أنه لا يمكن لأى إنسان أن يدخل فى هذه الغابة المستنقعية، وإلا ابتلعه الطين، اللهم إلا إذا كانت تجف فى بعض الأحيان وتصبح أرضا صلبة).

وفى عودتنا (ولكن من طريق آخر) مررنا بدكان كنا فى طريق الذهاب قد عرّجنا عليه وشربنا فيه كوكاكولا (والكوكاكولا هنا ليست قوية ولا تشعط فى الحلق!) وقابل فيه أحمد فتاة (هى بنت أصحاب الدكان) كان يعرفها فى بانجول، وكان الأولاد قد التفوا حولنا فى المرة الأولى يسألنى بعضهم أن أعطيه عشرة دالاسيات (تصورى! عشرة دالاسيات خبط لزق. آه يا مفترون يا أولاد الإيه!) فاشتريت لهم بخمسين بوتوتو حلوى، وكان كلما أخذ واحد منهم قطعته خبطته خبطة خفيفة على مؤخرة رأسه، فيضحك ويجرى. أقول: مررنا فى طريق عودتنا بهذا الدكان، فإذا بى، وأنا واقف بالخارج أنتظر أحمد،

الذى أطل يبحث عن الفتاة ليودعها، أسمع من ينادينى: "أستاذ إبراهيم". فنظرت، فإذا به مدرس من طلبتى. أخبرنى أن الدكان ملك أخته، وأن الفتاة هى بنتها، وأخرج من الثلاجة زجاجة كوكاكولا (وكنت عطشان)، وهم أن يفتحها لى، ولكنى اعتذرت، وقلت: لابد أن أدفع. ولم ينفع إلحاحه معى. وأخذنا نتكلم، وأنا أتأمل الدكان (وهو واسع، أوسع من معظم دكاكين بانجول، اللهم إلا الدكاكين الكبيرة الموجودة فى وسط البلد حول السوق، ولم أكن قد رأيتها أول مجيئى فلم أحدثكم عنها قبلا، وأنظف، وأبهج. وهو مثل الدكاكين الحديثة فى قريتنا). وكان إلى جانبى، وأنا جالس على دكة خشبية فى مقدمة الدكان وبينى وبين ذلك المدرس البنك، جوالقان من الأرز، رأيت فى أحدهما الأرز الذى وصفته لكم من قبل وقلت إنه يشبه الفريك، وقد عرفت الآن السبب فى هذا التشابه، إذ إنه أرز مجروش، وفى الثانى أرز مثل أرزنا تقريبا. سبحان الله! لو أن أحدا قال لى قبل شهرين تقريبا إنك ستجلس هذه الجلسة فى أحد الدكاكين فى قرية جامبية لعددته مخرفا. ولكنْ هكذا كانت مشيئة الله. كما كانت مشيئته سبحانه أن نجلس قبل العودة على هذا الدكان فى دكان شاب سنغالى تصادف أنه كان زميلا لأحمد فى المدرسة بالسنغال، جلسنا تحت طنف الدكان (الصاجى) على دكة خشبية، وأكلنا بعض الشطائر، وشربنا من دلو بلاستيك رمادى يميل إلى الفضة نظيف ماء أظن أنه من ماء البئر حتى ارتوينا. وقد التف الأطفال حولنا يحملقون فى وهم يقولون: "طوباب، طوباب"، فكنت أرد عليهم بدورى مشيرا إلى كل واحد منهم "طوباب، طوباب، طوباب" فيضحكون (و"طوباب" معناها الرجل الأوربى الأبيض. وقد سألت المدرس السالف الذكر: هل تعنى "اللون الأبيض"؟ قال: لا. وذكر كلمة أخرى. قلت: ولكنى لست أوربيا ولا أنا أبيض! فقال: ولكنك قريب منهم، فهم يعدونك واحدا منهم. فقلت: والله عال. لقصد صرنا أوربيين فى لعبة!). وكان إلى جوار دكان الشاب السنغالى بعض الشجيرات والأزهار، فكانت الفراشات لا تكف عن الدفيف بأجنحتها والحطّ عليها، وكان هناك ولدان كبيران، فقلت لهما: إذا أمسكتما لى بفراشة خضراء كبيرة فسأعطيكما شيئا ما. وفى الحال كان أحد القردين يمسك (كيف؟ لا تسألينى، فأنا لا أدرى. إنما هو الحافز المادى) فراشة ويقدمها إلىّ، فاشتريت لهما بنصف دالاسى حلوى أخذا يمصانها وهما واقفان ينظران إلينا. وكنت أنوى أن أحتفظ بالفراشة حتى أحضرها إليكم، ولكن كان معنى ذلك أنها ستموت فى يدى. فأطلقتها فطارت لا تصدق بالنجاة، وكُتِب لها عمر جديد.

قبل أن أنسى أحب أن أقول إن الكلمة التى كانت البنات الغجريات فى الغابة يرددنها أثناء الرقص هى فيما توصل إليه أحمد أخيرا: يا أمى! يا أمى! (أَمَّهْ يامَّه). لقد أشرق عليه الوحى فجأة، وأنا أحاول أن أساعده على فهم معناها، فحرك الميم بالفتح، فانجلى ما كان غامضا منها. وإذن فالشيخ سعيد لم يشأ أن يقول إنه لا يعرف ماذا تقول الفتيات، وأَحَبَّ أن يسكتنى، والسلام!

وعندما انصرفنا من دكان أخت المدرس، الذى كان نازلا ضيفا عليها أيام الدورة ليكون قريبا من العاصمة (بلده تبعد عن بانجول مائتى كيلو متر)، أصر على أن يصحبنا إلى المحطة. وهناك وقفنا تحت شجرة ضخمة ننتظر الأتوبيس مع المنتظرين، فطال انتظارنا، ولكننا لم نحس بالوقت بعد أن قعدنا على دكة مصنوعة من جذوع الأشجار بجوار الشجرة. وقد تكلمنا فى مواضيع كثيرة. وعرفت منه أن فى جامبيا حقولا كبيرة ولكن بعيدا عن العاصمة والمدن المجاورة لها، إذ إن الناس هنا يفضلون الذهاب إلى بانجول والعمل هناك على العمل بالزراعة. وقال إنهم يزرعون الفول السودانى والأرز والشعير وأنواعا أخرى لا أذكرها الآن، وإن فى جامبيا صناعات وطنية كصناعة المشروبات الغازية (رأينا المصنع فى الطريق بين بانجول وسيريكوندا، وهو مصنع صغير، على يمين القادم من العاصمة) وصناعة الزيوت وبعض الصناعات الأخرى. كما أكد لى أن الناس يحبون الرئيس جاوارا، وصحح لى معلوماتى عن وقت تحوله إلى الإسلام ثانية، إذ قال إن الناس قد أخبروه أنهم لن ينتخبوه رئيسا إلا إذا أسلم، فأسلم. وأردف: وهو الآن مسلم مائة فى المائة (أظن أنى حدثتكم عن أنه قد عاد إلى الإسلام بعد توليه الرئاسة)، وقد طلق زوجته النصرانية بعد رجوعه إلى حظيرة الإسلام. كما سألته (وطلبت منه أن يجيبنى بصراحة تامة) عن الحقيقة فيما يقوله الأوربيون من أن العرب كانوا يسومون الأفارقة العذاب، إذ يأتى إلى هنا تجار الرقيق العرب المسلمون ويخطفون الأطفال والنساء ويبيعونهم رقيقا، فقال: أبدا يا دكتور. إن العرب لم يأتوا إلى بلادنا إلا تجارا، وهم الذين نشروا الإسلام فى ربوع هذه البلاد. ونحن نحب العرب كثيرا لحبنا للإسلام وكتابه ونبيه ولغته. أما الأوربيون فهم الذين احتلوا بلادنا وقتلونا وأذلونا ونهبونا. فقلت له: لو افترضنا أنه قُدِّر لكم أن تحكموا الأوربيين من الغد فماذا أنتم فاعلون معهم؟ قال أحمد (بالإنجليزية): سأسامحهم! ولكن ذلك المدرس انبرى يقول وقد بدت عليه علامات التفكير: فلأفكر قليلا فى أى طريقة أنجع فى معاقبتهم على ما فعلوه بنا. إننا لن ننسى أبدا!

وكان على مقربة منا مسجد أبيض مربع، فى كل ركن منه مئذنة مربعة فوقها قبة لا يكاد يظهر منها إلا هلالها وشبه الكرة التى يرتكز عليها الهلال، وفيها فتحات زخرفية داخل مربعات تشبه إلى حد ما الزخارف العربية (الأرابيسك). كما كان فى الناحية الأخرى من الطريق المرصوف لافته عليها هذه الكلمات: "Nusrat High School". وقد ذكر لى أنها مدرسة أحمدية (قاديانية). فتعجبت: ما الذى أوصل الأحمديين إلى هذه القرية النائية (قرية بوندن كاكوندا)؟ والسلام عليكم، وإلى خطاب آخر—إبراهيم.

أحبائى الثلاثة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فالساعة الآن الخامسة إلا ربعا فى بانجول من يوم الثلاثاء ١٩٨٧/٧/٢٨م. وقد عدت من المدرسة منذ نحو ساعة ونصف، فاستحممت (والاستحمام هنا لابد منه لى فى كل مرة أنزل فيها الشارع ولو لعشر دقائق)، وصليت الظهر والعصر جمعا وقصرا، وتناولت غَدَائى، وشربت أربعة أكواب كبيرة من عصير الليمون المركز المخلوط بالماء (وأنا هنا أنفق على المشروبات مثل ما أنفق تقريبا على الطعام، فأنا أعرق هنا كثيرا)، وعندى فى الساعة السادسة والنصف اليوم ميعاد، إذ سوف يمر بى د. مرحاب ود. إشتاتو (وقد كنت كما لابد قد لاحظتم أكتبه "شطاطو" من قبل، ولكنى رأيت زميله المغربى يكتبها كما كتبتها فى هذه الرسالة الآن)، وسوف نذهب ومعنا أ. ماسخن كا إلى نفس المدينة التى ذهبنا إليها منذ يومين، وهى مدينة سيريكوندا، التى تبعد عن هنا نحو ثلاثة عشر كيلو مترا لمقابلة بعض المسؤولين عن جمعية التقدم الإسلامى للتباحث معهم فيما يمكن أن تقدمه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو Isesco) لهم وللناشئة المسلمة من عون فى مجال التربية والثقافة.

لم أكلمكم فى الخطاب الماضى عما تم فى زيارتنا السابقة لهذه الجمعية. لقد مر علينا نفس الأشخاص الذين سيمرون بى اليوم فى سيارة وأخذونى واتجهنا إلى تلك المدينة، وكانت الساعة الخامسة والنصف تقريبا، والنسيم يهب علينا ونحن داخل العربة لطيفا عليلا، فكان شيئا طريفا أن أعود مرة أخرى إلى المدينة التى كنت فيها قبل ساعتين تقريبا، وفى نفس الطريق. وعندما وصلنا وقفت بنا السيارة قريبا من ساحة متفرعة من شارع متفرع من الطريق العام الذى يمر بالمدينة. وفى الساحة وجدنا حصرا وسجاجيد مفروشة بجوار آخر مبنى على الشمال، والناس يجلسون على ثلاثة أضلاعها، فبعضهم يجلس وظهره إلى البيت المذكور، والضلع الذى يواجههم لا يجلس فيه أحد، وهو فى اتجاه القبلة. أما الضلعان الآخران ففيهما كراسىُّ متراصةٌ كانت تجلس عليها بعض النسوة، فقام أولئك اللائى يجلسن على الكراسى القريبة من الجهة التى أتينا منها، وتركن لنا المكان. وبعد الترحيب والذى منه أَعْطَوْا كلا منا جزءا من المصحف، وكان نصيبى جزء "الأنبياء"، وهو الجزء السابع عشر من القرآن. وكان فى يد كل من الحاضرين جزء. ومن الواضح أن الهدف من توزيع المصحف على هذا النحو أنه إذا قرأ كل واحد جزءه يكون القرآن قد خُتِم فى نفس الجلسة. وقد استطعت أن أقرأ (بلا صوت بل بعينى فقط) أربعة أرباع (نصف الجزء فقط).

ذلك أنى أركز فيما أقرأ، وهذا التركيز يقتضى البطْء الشديد. وكلما مررت بشىء يستدعى التأمل توقفت لأفكر. وقد كانت هذه أول مرة منذ وقت بعيد أقرأ مثل هذا الكم (على قلته بالنسبة لما يقرأ قارئو القرآن). ومن الآيات التى توقفت عندها قوله تعالى: "أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا، ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حى؟ أفلا يؤمنون؟" وقوله تعالى: "ألم يَرَوْا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها؟". وتساءلت: من المؤكد أنه لا الذين كفروا ولا الذين آمنوا ولا أى أحد فى الدنيا قد رأى السماوات والأرض رتقا قبل فتقهما، فما مغزى السؤال إذن؟ أهو سؤال إلى الأجيال التى ستأتى بعد قرون متطاولة يكون العلم الطبيعى فيها قد تقدم بما يسمح للناس أن يستنبطوا بعقولهم (لا أن يروا بأعينهم، فذلك الحدث قد مضى منذ أحقاب لا يعلمها إلا خالقها) ما يشير إليه القرآن؟ بيد أن السؤال موجه إلى "الذين كفروا"، وهم الذين كانوا يعاندون الرسول ويضطهدونه هو وأتباعه ويجهدون للقضاء عليهم وعلى دعوة الإسلام. كذلك ما معنى "ننقص الأرض من أطرفها"؟ هل هو انكماش الأرض بتقادم الزمن كما أذكر أنى قرأته عند بعض الذين يربطون العلم بالقرآن (ولعله المرحوم عبد الرازق نوفل)؟ لكن السياق سياق تهديد للكفار، وليس فى مثل هذا السؤال (إن فهمنه على هذا النحو) أى تهديد. كذلك كيف كان يمكن الكفار (أو غير الكفار) فى ذلك الوقت أن يَرَوْا نقص الأرض من أطرافها (إن صحت طبعا هذه النظرية. ولست حجة فى هذا الباب)؟ هاتان نقطتان تحتاجان إلى بحث. وسوف أشمر عن ساعد الجد وساقه إذ شاء الله حين أعود وأبحث مثل هذه الآيات. وأنت تعرفين أن لى أحيانا آراء أخالف فيها تفسيرات العلماء الطبيعيين لبعض هذه الأبيات، اعتمادا منى على السياق وروح القرآن والمنطق العام.

أيضا سأل أحد الحاضرين (وهو من المدرسين الذى نحاضرهم فى الدورة، ولا أدرى كيف تصادف وجوده هناك، اللهم إلا إذا كان من هذه المدينة وعضوا فى تلك الجمعية) سؤالا كان المفروض أن أجيب أنا عليه، ولكن الحمد لله أن عرض د. مرحاب أن يجيب هو، فتركته يفعل. ذلك أن السؤال أيضا يحتاج إلى تخصص عميق ودقيق فى العلوم الفلكية، على الأقل أن يرجع الإنسان إلى عدد مختلف من التفاسير قبل أن يقول إنه يستطيع (لا أقول: أن يفسر هذه الأية، بل) أن يدلى بدلوه، ولو بالقول بأنه يظن أن المعنى هو هذا أو ذاك أو أن العلماء يقولون كذا وكذا وأنا لست مقتنعا للسبب الفلانى، مثلا. وكان السؤال هو أن الآية تقول: "والشمس تجرى لمستقر لها. ذلك تقدير العزيز العليم" بينما المعروف أن الأرض هى التى تجرى حول

الشمس، فكيف التوفيق بين هذا وذاك؟ وهو سؤال وجيه أحمد الله أنى لم أجب عليه، إذ هل المقصود هنا جرى الشمس فى نظر العين؟ أم هل المقصود هو أن المنظومة الشمسية كلها تجرى فى الفضاء بما فيها الشمس؟ وإن صح أن المنظومة الشمسية كلها تجرى فى الفضاء (وذلك غير جَرْى الأرض وبقية الكواكب حولها، وجرى القمر حول الأرض، وبقية الأقمار حول أمهاتها (الكواكب) فهل هذا هو المقصود الإلهى من هذه الآية؟ كما تَرَيْن فإن المسؤول ليس أعلم من السائل، ومن قال: "لا أدرى" فقد أفتى. وقد أجاب الزميل بما لا يعد جوابا عن السؤال. إنما هو كلام عام. ويبدو أن من رأيه ألا نبدو بمظهر من لا يعرف، أو أراد مجاملة السائل بمجرد الجواب بأى شيء. على كل حال، الحمد لله أَنْ أَفْلَتُّ!

وبعد أن جمعوا منا أجزاء القرآن وزعت علينا أكواب الشاى، وهى أكواب صغيرة جدا، فى كل منها نحو ثلثها شايا أخضر مركزا تعلوه رغوة كثيفة. وكان مرا ولكن طعم السكر واضح فى خلال هذه المرارة. وبعد قليل وزع علينا فول سودانى مسلوق ومغموس فى السكر. وقد أخذ منى بعض الوقت حتى عرفت أنه فول سودانى ، طبعا أنت تعرفين غشمى فى معرفة أنواع الطعام، فأنا آكل والسلام. وقد أقول عن الباذنجان بالباشملى إنه كُوسَى. لا تضحكى. وأرجو ألا يكون ما قدم إلينا شيئا آخر غير الفول السودانى، ولكن لا أظن فقد كان هذا هو أيضا رأى د. مرحاب. ومما وزع علينا فى هذه الجلسة، ولكن بعد صلاة المغرب، مشروب أكون كاذبا لو قلت إنى عرفت المواد التى صنع منها، (فى هذه المرة شربتُ والسلام. عادتى أم سأشتريها؟ وطبعا لن أسلم من لسانك! عادتُك أم ستشترينها؟) وهو مشروب غليظ القوام فيه بعض الكلاكيع، وطعمه حلو: هل هو لبن؟ هل هو من الدقيق؟ هل هو جوز الهند؟ هل هو جبس؟ هل هو سحلب؟ لاحظى أنه لا علاقة بين أى شيء مما خمنته هنا وأى شيء آخر. ومعناه بصراحة وبكل صراحة (مع الاعتذار لفايزة أحمد) أن زوجك لا ذوق عنده فى الطعام، فأنت تعرفين أننى متواضع، وأرضى بأى شيء يقدم إلىَّ، وكله عندى طعام!

وقد تكلم فى هذا الاجتماع د. إشتاتو (شطاطو سابقا)، وكان حديثه عن ماضى المسلمين المجيد وتقدمهم العلمى والصحوة الإسلامية الحالية، وتبعه د. مرحاب بثلاث صفحات صغار (أظنها كانت عن التكاتف الإسلامى. لست متأكدا). وكان المفروض أن أكون ثالثهما، ولكن لم أكن متحمسا، فقلت: فليسأل كلٌّ ما يريد، وأجيب. وكان أول سؤال هو السؤال الذى ذكرته سابقا، ثم كانت الأسئلة بعد ذلك عن أعمال المنظمة الإسلامية (إيسيسكو) وأهدافها وعما يمكن أن تقدمه لمثل جمعيتهم من عون، وقد بين د.

إشطاطو (شطاطو تانى! معلهش. الغلطة مردودة) نقطة هامة جدا هى أن المنظمة لا تتعامل مع أى جمعية إلا من خلال الأجهزة الحكومية فى البلد الذى فيه هذه الجمعية حتى لا يفسر الأمر بأن المنظمة تتدخل فى الشؤون الداخلية لأى دولة إسلامية، وإن كان هذا لا يمنع أن تراسل الجمعية المنظِّمة مباشرة وترد عليها المنظمة أيضا مباشرة، ولكن مع إخبار الحكومة فى نفس الوقت وعدم اتخاذ أى خطوة عملية إلا من خلال الأجهزة الحكومية (أو هذا ما فهمته، ولعلى لم أخطىء الفهم). وكان يقوم بالترجمة من العربى الأستاذ ماسخن (ماسونا) كا (أو "كاه" والله أعلم) إلى اللغة المحلية، فكان المتكلم يقول جملة ثم يسكت حتى تترجم، ثم يقول جملة أخرى... وهكذا دواليك. وقد صلينا المغرب وصلى بنا إمام المسجد الذى يتبع الجمعية، ثم صلينا أيضا العشاء معا. وصلى معنا النساء، وكن جالسات كما قلت قبل قليل، ولكن على الكراسى المقابلة للكراسى التى جلسنا عليها أول وصولنا بعد أن تركن هذه لنا. وكانت إحدى كتفى بعضهن مكشوفة، وهى موضة من موضات الملابس هنا، أما الأطفال فكانوا يجلسون خلف أمهاتهم صامتين وصامتات، ولا أدرى هل صَلَّوْا هم أيضا معنا أو لا، وكان بعضهم يجلس متناثرا بعيدا عنا فيما تبقى من الساحة أمامنا خاليا، فذكَّرنى هذا بطفولتى، وشعرت بنشوه تتصاعد كالبخار الدافىء المعطر من أعماق أعماقى، وارتددت للحظات إلى قريتى عندما كنت صغيرا. ولم أكن أشعر "بعِزْق القلق" الذى أشكو لك دائما منه ونحن فى مصر، حتى لو كنا فى نزهة خلوية بين الحقول القليوبية أو المنوفية وبساتينها الساحرة، وعندما حل الظلام أَتَوْا ببعض المصابيح، وعلقوا واحدا منها على شجرة خلفنا حتى يستطيع د. مرحاب أن يقرأ ما كان قد كتبه. وسأله ماسونا (ماسخن) كا: هل الرؤية واضحة أم هل ننزل لك الفانوس قليلا؟ قلت: أو نحمله هو ونضعه فوق الشجرة قرب الفانوس! فضحكوا.

حكاية ليمنى وعلاء الدين: كنت أمس أشترى بعض المشروبات والجبن من أحد محلات الـ NTC (وهى مثل الجمعيات التعاونية فى مصر)، والبائع يعرفنى، فقال لى إنه يرغب فى الذهاب إلى مصر، ولكن التذكرة مكلفة. فقلت له: اقفز إلى هذه الزجاجة (زجاجة ليمون مركز. وكنت اشتريت اثنين بعشرين دالاسيا للواحدة)، وسألفها فى ورقة جرنال، وأحملها فى يدى، وعليك أن تَلْبِد ساكنا ساكتا، وإلا اكتشف موظف الجمارك أن ما فى الزجاجة ليس ليمونا مركزا lemon squash بل رجلا مركزا human

squash فأخذ يقهقة، وهو يقول: آه. عليَّ أن ألوذ بالصمت I will have to keep quiet، فقلت: نعم، وإلا باظت الطبخة!

الطلبة هنا (وهم أساتذة كبار) إذا أرادوا أن يستأذنوا منى أو يجيبوا على سؤال سألتهم إياه فرقعوا بأصابعهم فى وجهى، فيكون منظرا لطيفا: الفضل كله يفرقع (ومن ناحيتى أنا باسيبهم يفرقعوا).

الساعة الآن تجاوزت السادسة وخمس دقائق بدقيقة (على ساعتى). وعليَّ أن أقوم فأستحم مرة أخرى (لم أخرج هذه المرة)، فجسمى يلسعنى لا أدرى لماذا؟ ربما كانت حالة نفسية. أنا هادىء النفس، ومرتاح لأنى استطعت أن أكتب لكم هذا الخطاب. وبعد قليل سيمر بى إن شاء الله الإخوة لنذهب إلى سيريكوندا.

بالمناسبة هنالك بعض المحلات الكبيرة فى بانجول (الكبيرة نسبيا، وإلا فهى ليست كبيرة بالنسبة إلى محلات مصر حتى بعض تلك التى توجد فى بسيون). وهى موجودة فى السوق على مبعدة كيلو متر من الفندق (أى من الناحية الأخرى من المدينة، فالمدينة صغيرة، أصغر من طنطا). والسوق هنا معقول، وفيه كل شيء. وجزء منه اسمه "سوق السُّيَّاح". وفيه تباع التماثيل الإفريقية والملابس المحلية وما إلى ذلك. ومرة أخرى الأسعار هنا غالية بالمقارنة بأسعار مصر، والخامات أقل جودة. الدالاسى (وهو مثل الجنية عندنا، ووحدته هى البوتوتو، كما أن القرش هو وحدة الجنية عندنا، أو كان، فلم تعد هناك قروش إلا فى دكان خالى بالقرية، كما لم تعد هنا بوتوتوات إلا فى الخيال). الدالاسى هنا لا قيمة له، وهناك سوبر ماركت واحد (واحد فقط فيما أظن) فى بانجول، وهو أصغر من فرع Fine Fare الذى كنا نسكن قريبا منه فى سمرتاون هاوس بأكسفورد، أصغر منه مساحة وأقل منه أنواع طعام وخلافه.

قبلاتى ليمنى، وأرجو أن تجىء على نفسها قليلا وتتحمل قبلات بابا، وقبلاتى (بلا عدد) لعلاء الدين. وفقكم الله ورعاكم وبسط عليكم رحمته وستره. والسلام- بابا.

أعزائى الثلاثة، سلام الله عليكم، وبعد:

فإنى لم أكتب إليكم يومين متتاليين، إذ إن آخر خطاب كان بتاريخ الثلاثاء ١٩٨٧/٧/٢٨م، واليوم هو الجمعة ١٩٨٧/٧/٣١م. والساعة الآن نحو التاسعة صباحا، وأنا فى حجرتى بالفندق، وليس عندى محاضرات اليوم، ولكنى بعد فراغى من هذه الرسالة سوف ألبس وأذهب إلى المدرسة لأخطب الجمعة وأؤم الطلبة (المدرسين) فى الصلاة، كما أخبرتكم بذلك فى الأسبوع الماضى.ولا أدرى مَنْ عليه الدور فى الأسبوع القادم. ربما كان الأستاذ كيبا (وهو رئيس قسم فى إحدى المدارس الثانوية بجامبيا. وعربيته جيدة، وقد تعلَّم فيما أظن بمصر والسودان. وعنده سيارة بيجو يأتى بها كل صباح ليأخذنا أنا ود. مرحاب. والدكتور شطاطو (إشتاتو) سافر يوم الأربعاء، ولم يبق من العرب فى الدورة إلا د. مرحاب وأنا).

نسيت أن أصف لكم فى خطاب يوم الثلاثاء ما حدث فى تلك الليلة، إذ كنت جالسا فى الحجرة أقرأ فى كتاب للدكتور تمام حسان (عنوانه "اللغة العربية: معناها ومبناها"، وهو محاولة لتقسيم الكلام العربى لا إلى اسم وفعل وحرف كما جرى نَحْوُنا بذلك، بل إلى اسم وصفة وفعل وضمير وخالِفة وظرف وأداة. وأساس هذا التقسيم عنده أن التفريعات التى وضعها النحاة لكل قسم من الأقسام الثلاثة التقليدية لا يصدق دائما على كل ما يدرجونه فى هذا القسم. وهو لذلك يضع أسسا أخرى لتصنيف الكلام إلى هذه الأقسام السبعة الجديدة، ولكنها أسس معقدة ومربكة. ويبدو لى، والله أعلم، أنه متأثر فى تقسيمه هذا الجديد بالنحو الإنجليزى (وغيره من قواعد اللغات الأوربية الأخرى). كذلك أرى أنه يمكن تلاقى النقص فى التعريفات القديمة لأقسام الكلام الثلاثة والأسس التى يفرق بها النحاة العرب بينها ببعض الاحترازات أو الإضافات، ولا داعى لهذا الإرباك الذى أظن أن التصنيف الجديد سيحدثه فى النحو العربى وفى أدمغة دارسيه، وبخاصة من الطلاب، الذين ينفرون منه بتأثير عوامل مختلفة معروف بعضها وأهمها، ومجهول بعضها الآخر. ومع ذلك فهى محاولة جديدة جديرة بالقراءة والتأمل. ومن يدرى؟ ربما كتب لها برغم ما قلت أن تشيع وتهزم التقسيم النحوى القديم)، كنت أقرأ فى كتاب د. تمام حسان هذا وإذا بى أسمع خبطا عنيفا بدا لى أنه صادر من الطابق الأرضى (أنا فى الطابق الأول)، فظننت أن عمال الفندق يهرّجون (وهذا غريب) أو يتعاركون (وهذا أغرب). ثم تكرر ذلك وأنا أزداد استغرابا. ثم تنبهت إلى أن ثمة عاصفة هى التى تخبط الأبواب وتقلب الأشياء وتزمجر وتصفر. ثم تلا ذلك رعد وبرق، خفيفان أول الأمر، ثم قليلا قليلا ازدادا عنفا. وشعرت أن

الفندق سينخلع من قواعده وينقض على رؤوسنا. وكانت أصوات البرق من الشدة والإزعاج بحيث خيل إلىّ أن هذه غارة جوية تلقى فيها القنابل وتطلق الصواريخ. وكنت، وأنا جالس على الكرسى أفكر فى الجبروت الإلهى وأردد الآية الكريمة: "يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله، وهو شديد المِحَال"، يخيَّل إلىّ أن هذه الدمدمات والانفجارات إنما هى صواريخ يوجهها عدو مهاجم على حجرتى، وأن المسألة ليست إلا مسألة وقت، وأن الضربة القادمة ستكون أكثر إحكاما، وستصيب هدفها فى مقتل، وستَذْرُونى أنا والكرسى وكل أثاث الحجرة فى الهواء العاصف الذى بدا لى أنه سيقتلع الأشجار اقتلاعا. ولم يكن الرعد متقطعا كما هو الحال عندنا تفصل بين كل رعدة والآخرى عدة دقائق (مع الفرق الهائل بين دمدمة الرعد هنا وصوته فى مصر، إذ لا وجه للمقارنة)، بل كان رعدا متصلا كأنه عدة بطاريات صاروخية تنطلق كل منها إثر الأخرى، حتى إذا ما أطلقت آخر بطارية صواريخها جاء الدور على الأولى... وهكذا دواليك. وقد خرجتُ إلى الشرفة، ولا يفصل بينى وبينها إلا باب الممر، فرأيت البرق يضيء الدنيا، فيبدو وكأن الشمس توشك على الشروق. وكانت أنوار السيارات القليلة المارة، فى كثير من الأحيان، تختفى فى ضوء البرق.

وفى هذه الأثناء انقطع التيار الكهربى، فنزلتُ فأحضرت شمعة وكبريتا (مازالا إلى الآن على المكتب). وحاولت أن أقرأ، بيد أن حرارة الشمعة وحرارة الحجرة (رغم الهواء العاصف والمطر المنهمر بالخارج) منعتانى من الاستمتاع بالقراءة، فأطفأت الشمعة وأويت إلى الفراش، لكن الغرفة كانت حارة رغم أنى قد فتحت زجاج النافذة على آخره (مطمئنا إلى أن السلك الشبكى البلاستيكى سوف يمنع البعوض من الدخول، إن كان ثمة بعوض فى هذه العاصفة المزلزلة). وبعد تقلبات وتبديل للمخدتين بوضع الباردة تحت رأسى إلى أن تسخن فأغيرها تنبهت إلى أن التيار الكهربى قد عاد. وكنت قد أطفأت المكيف عند اشتداد البرق والرعد، ففتحته، فأخذت الحجرة تترطب شيئا فشيئا، حتى إذا أصبح الجو مهيأ للنوم كنت قد رحت فى النوم. لقد كانت ليلة!

وقد فهمت من الذين حدثتهم فى هذا الموضوع أن مثل هذا البرق والرعد أمر عادى فى بانجول، بل إن الدكتور مرحاب قد ذكر لى أن الرعد والبرق شديد فى المغرب، ولكن يبدو لى أنه قال: ولكن ليس إلى هذا الحد. قلت له: إن الرعد والبرق عندنا لعب أطفال !

هذا عن ليلة الثلاثاء. أما عن مساء الثلاثاء الذى قضيناه فى سيريكوندا فقد ذهبنا فيه إلى بيت الأستاذ سليمان فاى، وهو أحد كبار أعضاء جمعية التقدم الإسلامى (ولعله رئيسها. لست متأكدا، وسهوت أن أسأل)، وهو مدير معهد التنمية (وهو منصب كبير هنا)، ومن المقربين إلى رئيس الجمهورية. وبعد أن أخذتنا السيارة التى جاءت إلى بانجول وأقلتنا إلى هناك ودارت بنا فى شوارع كثيرة فى سيريكوندا: تدخل فى شارع وتخرج من شارع، انتهى بنا المطاف إلى بوابة دلفتْ منها السيارة إلى فناء وجدنا به عدة سيارات أخرى، فترجلنا، وصعدنا عدة درجات إلى طنف استقبلَنا عنده صاحب البيت ومن سبقونا من كبار أعضاء الجمعية المذكورة إلى هناك، فرحبوا بنا وقادونا إلى الداخل بعد أن خلعنا أحذيتنا وتركناها عند الباب. أما المكان الذى جلسنا فيه فهو صالة طويلة تدخلين إليها من الباب الذى دخلنا منه، ويواجهه باب آخر يؤدى إلى داخل المنزل قد أرخيت عليه ستارة من شقين. وكان هناك أرائك وكراسىّ بحذاء الجدران ما عدا الركن الذى على شمال الداخل، ففيه المائدة بجوار الحائط، وكذلك الجدار الذى بواجه الصالة على شمال الداخل أيضا ففيه صوانان (للصينى فيما يبدو، وإن كنت لا أذكر أنى رأيت فيهما أوانى). وكان بعض الحاضرين يجلس على الأرض، ومنهم صاحب البيت. وكان قد دخل ولبس جلبابا مثل الجلاليب المصرية الإفرنجية ذات الأكمام الواسعة، وهو جلباب مخطط بخطوط زرقاء عريضة هادئة وخطوط بيضاء أضيق منها. وتحته البنطلون الذى كان يلبسه عند حضورنا. وقد جاءت زوجته فسلمت علينا، وصبت لكل منا فى قدحه ما رغب فى شربه من ألوان المياه الغازية المختلفة. وبعد فترة رأينا إمام المسجد وشيخا آخر يُجِلّونه (لا أعرف اسمه، ومن عادتهم فى مثل هذه الاجتماعات أن ينشد لهم قصيدة صوفية فى مدح أحد مشايخ الطرق الصوفية فى المغرب، وهو أحمد (؟) التيجانى) يأكلان شيئا قدم إليهما فى الناحية الأخرى (اليمنى بالنسبة للداخل) ويدعوننا إلى مشاركتهما، فشكرناهما واعتذرنا. وقد قيل لنا إنهما سيغادراننا. وفعلا بعد أن انتهيا من الطعام سلما علينا وانصرفا. وبعد قليل رأينا أبناء الأستاذ سليمان فاى يحضرون بعض الأطباق ويضعونها بِرَصَّتها فوق المائدة. ثم جاءت ثلاث صينيات كبيرة وملاعق وسكاكين. وكان فى صينية لحم دجاج ولحم بقرى كثير، وفيه صلصة كثيرة. أما الصينيتان الأُخْرَيَان فقد كان فى كل منهما شعْرِيّة رفيعة مجزأة أجزاء صغيرة: نصف الصينية الأعلى شعرية صفراء، والأسفل شعرية بيضاء. ودُعِينا إلى خدمة أنفسنا بأنفسنا، فأخذ كلٌّ ما أحب وهو واقف، ثم رجع بطبقه وشوكته وملعقته وسكينه إلى كرسيه.

وكان الأكل شهيا وجميلا. وكان فيه شطة، ولكن ليس كشطة الباكستانيين (أتذكرين الطعام الجميل المشطشط الذى كنا نتعارك عليه، والذى كانت ترسله لنا السيدة الباكستانية بنت صاحب البيت الذى كنا نسكنه فى لندن؟ إننى لا أذكر اسمها الآن مع أنه على طرف لسانى.أهو "شَمِيم"؟ لا أدرى أكانوا هم أيضا يتعاركون على طعامك أم لا؟). وبعد الطعام شربنا كوكاكولا مرة أخرى. ثم شربنا كوكاكولا (أقصد مياها غازية بوجه عام) مرة ثالثة.

وتُبُودِلَت الكلمات: كلمات الترحيب وكلمات العمل، وكان يقوم بالترجمة الأستاذ ماسخن (ماسونا) كاه (اسمه "محمد". ولا أدرى هل "ماسخن" هى محمد أو هما اسمان مختلفان له). وكان الأطفال يجلسون أثناء ذلك على الأرض عند الستارة وهم هادئون تماما لا يحدثون صوتا. بل كانت البنت الصغيرة تجلس على حجر أمها، التى كانت تجلس على كرسى فى الناحية الآخرى، هادئة ساكنة، وفى فمها بزازة (وإن كانت تمشى). ولم تبك أو تحدث أيه ضجة، اللهم إلا مرتين بغمت فيهما بُغَامًا قصيرًا، ثم سكتت كأنها تستمع إلى ما يقال وتَزِنُه. وكانت قد شاركت مع إخوتها فى إحضار أدوات الطعام كأنها ربة بيت حكيمة، مما أدهشنا، فقيل لنا إن أمهم تحسن تربيتهم. وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها، وكان من بين الحاضرين سيدة تلبس ملابس وغطاء للرأس يذكراننى بالنسوة اللائى صورهن بعض المستشرقين الرسامين فى القرن الماضى فى مجالس الحريم، وأمامها شنطتها، وهى جالسة وممدة ساقيها على الأرض، فسأل أحدنا عنها، فقالوا: إنها مديرة (لا أذكر الآن فى أى مصلحة حكومية). وربما كانت هى أيضا عضوة فى الجمعية الإسلامية السابقة الذكر.

وفى هذه الجلسة وُزِّعَتْ على كل منا نسخة من دستور الجمعية بالإنجليزية مذكور فيها اسمها وشروط العضوية لمن يرغب فى الانضمام إليها، وأهدافها، وصلتها بالحكومة (وهنا يذكر الدستور أن وظيفة الجمعية هى تربوية ودينية خالصة، ولا علاقة لها بالنشاط السياسى.ومع ذلك فإنها على استعداد للتعاون مع الحكومة فى أى نشاط يهدف إلى تعميم التربية الإسلامية ونشر المعارف الإسلامية)، ومجلس إدارتها (وهو يقوم على الانتخاب الحر المباشر)، ومصدر تمويلها (وهو اشتراك شهرى قيمته دالاسيان، إلى جانب جمع المال من الأعضاء كلما دعت ضرورة إلى ذلك. ومن يتخلف عن دفع الاشتراك الشهرى أو لا يشارك فى تقديم المال المطلوب فى حالات الضرورة لا يعد عضوا عاملا، ولا يحق له حضور الاجتماعات نصف

الشهرية أو المشاركة فى الانتخابات). وفى نهاية الدستور نصٌّ على أن ممتلكات الجمعية وأموالها تذهب تلقائيا (فى حالة تصفيتها) إلى المؤسسات الإسلامية (كالجمعيات المشابهة أو المساجد مثلا) التى تهدف إلى نفس ما تهدف إليه الجمعية.

والآن بعض المعلومات الآخرى عن الحياة فى جامبيا. النساء يحملن أطفالهن الرضع على ظهورهن، إذ يربطنهم بعُرْضٍ من القماش يلففنه حول ظهورهن وتحت أردافهن بعد أن يخرجن أيديهم (وتطل رؤوسهم الصغيرة طبعا) ويربطنه على بطونهن. وكثيرا ما أرى الطفل من هؤلاء وقد نام خلف ظهر أمه وانكسرت رأسه (إلى اليمين أو الشمال، حسبما يصادفه النوم). أما أغطية رؤوس الرجال فهى الكلابيش والطواقى الإفريقية المزركشة، وأحيانا طرابيش العمائم (مع اختلاف أشكالها ودرجات ألوانها الحمراء)، ولكن من غير شِيلانٍ أو زِرٍّ، فتَرَيْنَ الأنبوب القصير الذى يشبك فيه الزر وحيدا لا يجد من يؤنسه.

والناس هنا هادئون وادعون، فلا صخب ولا تماسك بالأيدى فى الشوارع رغم وقدة الحر وارتفاع نسبة الرطوبة. وهم يركبون الأوتوبيس بهدوء وينزلون بهدوء. ولا يمشى الأوتوبيس إلا بعد أن يغلق أبوابه. وإذا أراد أحدهم النزول ضغط على زر (كما هو الحال فى بريطانية). ولا يجوز السائق محطة من غير أن يقف فيها. والشوارع رغم رمليتها وحفرها ليست قذرة (كما هو الحال عندنا فى مصر). لا أريد أن أقول إنها نظيفة تماما، ولكن الكناسين يكنسون بذمة (فيما يخيل إلىّ). والطرق سيئة ومملوءة بالمطبات، والسيارات التاكسى شبه محطمة، ودائما تشخلل وتتخلع. كفاية كده. سلام عليكم– إبراهيم

زوجتى العزيزة، يمنى، علاء الدين. السلام عليكم من بانجول.

كتبت إليكم صباح اليوم خطابا قبل الذهاب لصلاة الجمعة فى المدرسة. والساعة الآن التاسعة إلا سبع دقائق تقريبا (مساء). وأكتب إليكم هذه الرسالة الثانية تعويضا عن صمتى اليومين الماضيين (فاضى بقى. والفاضى يعمل قاضي... ويعمل كاتب رسائل ايضا).

أولا: كيف حال يمنى الحلوة الرقيقة؟ هل هى مازالت تتأخر فى السهر وتقرأ ميكى جيب، ولا تحب قراءة القصص الإنجليزية؟ إنها لخسارة أن تهمل قراءة الكتب الإنجليزية، وهى التى كانت تحبها وهى صغيرة وتقرؤها بسهولة. أما الآن فإنها تضيق إذا طلبت منها أن تقرأ كتابا واحدا أو عدة صفحات إلى جانب الكتب والقصص والمجلات العربية التى تحب قراءتها كثيرا. ومع ذلك ينبغى أن أحمد الله على أنها تحب القراءة وأن أسلوبها جيد بالنسبة لسنها، ومحصولها من المفردات والتعبيرات وفير، وأنها إلى جانب ذلك آنسة جميلة (وإن كانت نحيفة قليلا، و"وشها زَى المليم" كما تقول مامتك وكما لا أقول أنا ولا أوافقها عليه). كيف حال علاء الدين، الذى لا يحب القراءة كما يحب اللعب، ومع ذلك فخطه جميل؟ وأرجو مع الأيام أن يهتم بالقراءة أكثر من ذلك. ولعله أقلع عن تمنيه أن يكون ضابطا فى الشرطة ليمسك الحرامية، فهذا بحر لا ساحل له. أنا أحب أن يكون الاثنان من أهل العلم، فإن العلم شرف وكرامة لصاحبه فى الدنيا والآخرة إن شاء الله. والناس جميعا يعرفون الجاحظ مثلا، ولا يعرفون صاحب الشرطة فى بغداد فى عصره. وإن عرف بعضهم ذلك فلا أحد يهتم به.

ثانيا: قابلت الشيخ سعيد (صاحب "التعلب قال لى")، وأصر على اصطحابى معه إلى بيته فى قرية "باى بلين" القريبة من الغابة التى ذهبت إليها من قبل ورأيت العقارب (كما قال لى) والرقص الإفريقى (كما رأيت أنا بعينى). وبعد أن تغدينا وصلينا ذهبنا إلى الغابة مرة أخرى، وكان معنا شاب جامبى يعرفه ويثنى عليه اسمه الشيخ (وينادونه هنا: "شيهو" كما سمعت بعض النساء فى الغابة يستوقفنه ويناديته. بالمناسبة ليس شرطا أن يكون اسم المسلم هنا اسما إسلاميا صريحا، فكثير من المسلمين لهم أسماء إفريقية مثل "كيبا" و"يونجو" مثلا. وقد يكون للواحد أو الواحدة منهم اسم إسلامى، ولكنه محرف. فإبراهيم مثلا "إيبو"، ومريم "ياما"، إذ هم يأخذون مقطعا (أحيانا الأول، وأحيانا الوسط أو الأخير) ويضيفون إليه حرف مدّ. وعلى هذا فمن الممكن أن كثيرا من اللاعبين الأفارقة الذين ليست لهم أسماء إسلامية واضحة كبقية زملائهم أيضا

مسلمون (اللهم إلا إذا كانت أسماؤهم أسماء نصرانية صريحة). أقول هذا، لأننا كنا نتحير أحيانا فى معرفة اللاعبين الأفارقة الذين يلعبون ضدنا أو فريقنا القومى: هل هم مسلمون أو لا؟

(كنت وقفت هنا أمس، وخرجت لحاجة على أمل تكملة الخطاب بعد الرجوع، لكنى لم أستطع. والساعة الآن الحادية عشرة مساء السبت ١٩٨٧/٨/١م).

واستطعنا هذه المرة أن ندخل الغابة، ولكنى للأسف قد خاب ظنى فيها، إذ ليست هى الغابة التى كانت فى خيالى والتى بدت لى من خارجها أول مرة. لم تكن أشجارها متكاثفة، بل كان معظمها نخيلا متباعدا (غير نخيلنا)، وبعض الأشجار الأخرى بين الحين والآخر، وبعضها ضخم وارف الظلال. وكان العشب فى كل مكان، كما كانت هناك بعض الحقول الصغيرة (كالعادة فى هذه النواحى). وكانت هناك طرق (رملية كالعادة). كذلك كانت هناك مقالب للسيارات الخردة، وأخرى للقمامة. وكان هناك بيوت بعضها متناثر وحوله سور يحيط إلى جانب البيت بقطعة أرض، وكثير منها متجاور كبيوت بانجول الفقيرة. وتوجد بين هذه البيوت دكاكين صغيرة اشتريت من أحدها لبَكْر (الابن الأصغر للشيخ سعيد) زجاجة سبرايت (مياه غازية). وكنا بين آن وأخر نشم رائحة كريهة، وقد رأيت فى إحدى هذه المرات حظيرة خنازير، فغلب على ظنى أن تكون هى مصدر هذه الرائحة. أيضا رأيت فى الغابة بعض النسوة العاريات الجذوع: صدرا ووسطا، فسألت شيهو: هل هن مسلمات؟ فقال: إن معظم نساء هذه الناحية نصرانيات. غير أنى فى اليوم التالى ذهبت مع الشيخ الحامولى (الذى حدثتكم عنه من قبل، وهو إبيارى الأصل، وإن كان طنطاوى المولد والنشأة، ويشتغل هنا مع الشيخ سعيد وبعض المدرسين المصريين وآخرين فى المدرسة الإسلامية العليا، على حساب الأزهر، الذى يدفع لهم فيما أخبرنى هو مرتبات سخية، أفضل مما تعطيه السعودية مثلا لزملائهم الذين يشتغلون هناك)، ذهبت معه إلى بيته، فرأيت فى فناء البيت المجاور (فى بانجول نفسها) امرأة عارية الصدر والوسط، فسألته عن ديانتها، فقال: إنها مسلمة، وإن ذلك أمر عادى هنا.

غير أن هذه أول مرة أرى ذلك فى بانجول، وإن كانت النسوة (ومثلهن الرجال) يلبسن نوعا من الملابس يكشف عن آباطهن وما حولها إلى قريب من أثدائهن. ولا يمنعهن ذلك أو البلوزات الشفافة أن

يصلين (رأيت أمس عاملة الاستقبال فى الفندق تصلى ببلوزة شفافة). وما دمت أتحدث عن الملابس فمن المناسب أن أذكر أن معظم الناس هنا يلبسون شباشب باتا (زنوبة) أو صنادل بلاستيك.

وفى الغابة رأيت الرقص مرة أخرى، غير أن اللحن هذه المرة كان يتغير كل حين، وكانت الرقصات مختلفة. وكان بعض الراقصين عرقانين يلمعون فى الشمس. وقد أخبرنى شيهو أن هذه فرقة أخرى غير الأولى، التى ربما رحلت إلى أوربا للعمل فى ملهى ليلى هناك، وأن ما نشاهده من رقص إنما هو تدريب على ما يؤدونه فى النوادى الليلية. وكانت حلقة رقص هذه المرة مسوَّرة بسعف النخيل المتشابك، فوقفنا عند السور نطل من فوقه (على حين أطل بَكْر من فرجات السعف نفسها). وكان العازفون جالسين وواقفين تحت ظُلَّة من السعف على هيئة قمع. وكانت الطبول أنواعا، كما كان هناك آله تشبه الإكسيليفون، ولكنها كبيرة. كذلك سمعنا صوت آلة يشبه صوت السمسمية، ولكن لم نرها. وكانت لا تسمع إلا عند توقف العزف وبدئه مرة أخرى. وكانت هناك ظُلَلٌ أخرى على هيئة نصف دائرة تقريبا فى الناحية المواجهة لنا، يجلس تحتها بعض المتفرجين. وقد لاحظت أن حركات الراقصين، وبخاصة البنات، تنقصها الرقة والنعومة، ولكنها مرنة ومتقنة مع ذلك. وكان إلى جانبنا بعض الأطفال السود يرقصون على النغمات، فذكَّرونى بوليد وكرشه الصغير.

وقد أضحكنى منظر بعض الراقصين وقد حلقوا شعورهم وتركوا فى وسطها (قريبا من الجبهة) ما يشبه عرف الديك (ولكن قصيرا)، فكدت أقول: "دامِى يا دامِى"، غير أنك لم تكونى هناك لا أنت ولا يمنى لتقولا: "امشى من قدامى!". أتذكرين؟ (أين من عينىّ هاتيك المجالى؟ المجالى هذه المرة لا "المجارى"، فهى مجالى لندن ومناظر الهِدْ سِكِنْ (head skin) الذين كنا نسميهم "دامى دامى"، بعد سماعنا تلك الأغنية، التى حرفناها إلى "دامى يا دامى، امشى من قدامى".

وعلى ذكر الخنازير نذكر الخرفان. والمسلمون هنا يعدون شراء الخروف فى العيد شيئا هاما جدا. حتى إن الفقراء يستدينون ليشتروه. ومن العيب الشديد ألا يشترى الجامبى خروفا فى عيد الأضحى. وتجدين الذى لا يستطيع ذلك حزينا كاسف البال كأنه خزى الدهر! وأخبرنى أحد الطلبة (الأساتذة، يعنى) أن زوجة الواحد منهم إذا لم يشتر خروفا فى العيد تنكِّد عليه عيشته، وقد تطلب الطلاق. الحمد لله أننى لست متزوجا من جامبية. ومع ذلك أخبرتنى امرأة لا أعرفها جاءت إلى الفندق وأنا جالس مع الجالسين فى

الصالون ذات ليلة أنها تريد أن تتزوجنى، وقالت إن المهر لا يزيد عن أربعة دالاسيات وربع حسبما جاء فى القرآن. قلت لها: إنك فقيهة ليس لها مثيل (أَخْ. وقعتُ برجلى ولا أحد سَمَّى علىَّ! أمن العقل أن أقول هذا الكلام؟ ولمن؟ لكِ أنت! العفو والمغفرة إذن يا أم علاء الدين! فليس الذنب ذنبى). والجدى الصغير هنا قد يزيد ثمنه على ألف دالاسى. يالخراب البيوت!

المدارس النصرانية الأوربية منتشرة هنا. وهم يغرون بعض أولاد المسلمين بالمال والكتب وغير ذلك على الالتحاق بها والتأثير على عقائدهم وحملهم على الارتداد عن دينهم. حدثنى أحد المدرسين من طلبتى أنه يشتغل منذ فترة طويلة بإحدى هذه المدارس. وكان عدد الطلبة المسلمين حين توليه العمل فى تلك المدرسة قليلا، فظل وراء الطلبة الذين تنصروا يبصرهم بسوء عاقبتهم فى الآخرة ويحذرهم من ألا عيب الأب (father) الأوربى حتى استجابت له الأغلبية الساحقة فعادت إلى الإسلام، وقد أخبرنى عن بعض مظاهر الصراع بينه (وهو المسلم الوحيد فى هذه المدرسة. أرسلته الدولة لتعليم الطلبة المسلمين العربية والدين) وبين إدارة المدرسة النصرانية، وأنه لولا وعيه وثباته لأوقعوا به الضرر، وأن بعض المسلمين من موظفى الحكومة الذين يشرفون على مثل هذه المدارس يساعدون النصارى الأوربيين رغبا أو رهبا.

وكنا اليوم فى زيارة للشيخ سنجالى بوجن، وكان الحاكم السابق للإقليم الذى يسكن فيه، وهو إقليم بريكانا. (وقد أبعد عن منصبه إثر الانقلاب الفاشل الذين وقع منذ مدة، إذ ظنت الحكومة أنه متعاطف مع قادته)، فكان أول شيء قاله أول ما قُدِّمْنا إليه ورحب بنا أنه ينبغى بناء المدارس العربية الإسلامية لتقف فى وجه مدارس النصارى (يقصد الأوربيين). وسماهم بالمخربين، وأكد أن بناء مدرسة أفضل من بناء مسجد لأن العبادة الصحيحة غير ممكنة إلا بالتعليم والتربية.

وقد أخذَنا إلى مزرعته، وهى مزرعة كبيرة تجاوز المائة والخمسين هكتارا. وذهبنا إلى هناك فى الأوتوبيس الضخم الذى كان يقلنا، وكانت الطرق ضيقة جدا بين الحقول، وكانت أغصان الأشجار على حافتى الطريق تلطم النوافذ المفتوحة وتكاد أن تقلع عيوننا لولا أننا كنا نغطس وراء المقاعد ونميل إلى الداخل. وعند وصولنا حكى لنا كيف استصلح كل هذه الأرض رغم معارضة والده وأولاده (وكان ذلك سنه ١٩٧٤م)، ومعارضة شيخٍ (لا أدرى من أى البلاد الإفريقية) كان يعيش هناك فى الغابة قرب عين ماء كان الناس يذهبون ليستحموا فيها تبركا بالشيخ واعتقادا فى مقدرة العين ببركته على شفاء الأمراض.

وكان من بين ما شجع أولاده على المجيء إلى المكان (الذى يبعد عن بيته نحو ميل) أنه أخبرهم بأن الأرض تحوى ذهبا وفضة وماسا (يقصد أنها لو استصلحت وقلعت أشجارها فستدر عليهم رزقا وفيرا ومالا كثيرا)، وقال لنا إنه بالعزيمة والإصرار والإيمان بالله وتهديده لأولاده بأنه برىء ممن لا يعاونونه فى إزاله أشجار الغابة وزراعة الأرض قد نجح فى استخلاص هذه المساحة الهائلة من براثن البوار. وقد كان هناك شجر من كل نوع: موز وجوز هند وليمون وبرتقال وشجر الكولا والمانجو والأناناس... إلخ. وكان المكان ظليلا، والطيور تغرد. وأعطانا ليمونا وبرتقالا وبعض الأناناس وعددا من ثمار جوز الهند. شربت إحداها من ثقب صنعه لى أحدُ أُجَرَائه، وأكلت لحمها. وأخذ الطلاب يسقطون البرتقال بعصا طويلة فيها خطاف. وكان يوما جميلا من الصعب نسيانه. وقد ذكر لنا الشيخ سينجالى يوجن أنه لو كان أُخْبِر مقدما بمقدمنا لأعد لنا غداء، إذ إن عددنا قليل جدا (كنا أكثر من أربعين)، وهو معتاد على زيارة مجموعات من السياح أكثر منا عددا. فقلت للأستاذ كيبا جان، الذى كان يقوم بالترجمة بيننا وبينه: كيف يكرم هؤلاء الأوربين وهو ينعتهم بالمخربين الذين يكرهون الإسلام ويجتهدون للقضاء عليه؟ فقال: إنه لا يطعمهم بالمجان مثلما كان سيطعمنا لو علم سلفا بقدومنا إليه! ذلك أنه يأخذهم إلى الهواء الطلق ويعد لهم الطعام بمقابل، إذ كانت عنده شركة سياحية، وكان هذا جزءا من البرنامج الذى تضعه للسياح.

وعند انصرافنا من عنده قبلت رأسه وشكرته أنا والجميع شكرا حارا، ودعا لنا ودعونا له، وطلب منا قراءة الفاتحة فقرأناها جميعا معا.

كان الشيخ الإفريقى الذى كان يستغل الناس فى الغابة قد خوفه من الموت إن هو قطع أشجار الغابة، غير أنه هدده بالقتل أو الرحيل عن المكان إن لم يشتغل معهم فى إصلاح الأرض، فاشتغل معهم فترة ثم تركهم ورحل.

الساعة الآن الثانية عشرة والربع ليلا، وأريد أن أنام لأنى متعب قليلا. تصبحون على خير – إبراهيم.

زوجتى العزيزة، يمنى، علاء الدين. السلام عليكم ورحمة الله، وبعد:

فاليوم الأحد ١٩٨٧/٨/٢، والساعة الآن التاسعة إلا عشرا تقريبا.

وقد أخبرنى أحد الباعة الصبيان فى السوق صباح اليوم، حينما علم أنى مصرى، أن مصر ستلاعب السنغال اليوم، فحاولت قبل الخامسة بقليل أن أرى المباراة فى التليفزيون، ولكن لم تظهر على الشاشة إلا نغمشات بيضاء وسوداء، أما الصوت فلم يكن هناك صوت، ذلك أن الدنيا كانت تمطر، وكان ثمة رعد وبرق، فلم يكن الجو صالحا لاستقبال أى شيء من تليفزيون السنغال، الذى لا بد أنه كان يذيع المباراة على الهواء من نيروبى (بكينيا) حيث تقام هذه المبارايات (لا توجد محطة تليفزيونية فى جامبيا. أما الإذاعة فتوجد لها محطتان: واحدة حكومية، والآخرى تجارية. وهذه الأخيرة تذيع الإعلانات والوَفَيَات وما إلى ذلك بالفلوس. وكثيرا ما تسمعين الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يقرأ آية أو اثنتين، ثم تعقبه موسيقى الجاز بدون فاصل بين الاثنين حتى ولو بـ"صدق الله العظيم"!). كذلك حاول أحد عمال الفندق أن يلتقط إذاعة السنغال، ولكنه لم يستطع. فقلت: أذهب إلى المحيط. وكانت السماء قد كفت عن الهطول، ولم يعد ثمة رعد أو برق، وهناك قابلت شابا جامبيا معه مذيا ع صغير أخبرنى أن مصر هزمت السنغال ١/ صفر، ففرحت. وتخيلت رجلى الصغير بارك الله فيه، وهو يشاهد المباراة وحده من غير بابا، الذى يأخذه على حجره، فيضطجع متسلطنا (ولا أَجْعَص مَلِك)، وعندما نحرز هدفا أرميه فى الهواء ثم ألتقطه وهو جذل، فتأتى يمنى قائلة: "وأنا كمان"، فأرميها هى الأخرى وألتقطها (ومع ذلك لم أعرف نتيجة مباراة المغرب والكاميرون).

وعند المحيط جلست أنا وذلك الشاب، وتربعتُ مواجها المحيط، الذى كانت أمواجه تسير فى بطء تحت أقدامنا، والدنيا غائمة، وألوان الغيم رمادية وبيضاء وزرقاء زرقة غبش الصبح، وطائر من طيور النورس واقف فى الماء على مقربة منا. كان وحيدا، فأحسست أنه حزين، ولكنى قلت: ربما كان ينتظر صديقته أو حبيبته. بعد قليل جاء نورس آخر أبيض (كان الأول أسود)، وأظن أنهما طارا معا. تمنيت لو أنى أصبحت نورسا، ولكنْ نورسا بعقل بشرى، نورسا يقرأ ويكتب ويحس الحياة كما أحسها ولكن من غير ذلك القلق السخيف الذى يفسد المتعة. إذن لطرت فى الآفاق لا تعوقنى بحور أو بِيدٌ أو جبال، ولا أخاف من ثعبان أو أسد أو إنسان لئيم، ولصَلَبْتُ جسمى فى الجو فوق الشاطىء أنظر الناس والسفن من عَلُ، وأنا ساكن فى الفضاء، فإذا شئتُ هبطت وإذا شئت طِرْت.

وكان لون المياه لبنيا، والموج هادىء، وسطحه ممهد. وبدا لى أننى لو خطوت عليه لحملنى وما غرقت. وتذكرت ما قاله الإنجيل عن مشى سيدنا عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليمات. ترى لو صح أنه قد مشى فعلا على الماء (أقول: "لو صح"، فإن القرآن لم يذكر له هذه المعجزة، ومن ثم لا يستطيع المسلم أن يجزم بوقوعها أو ينفيها) فماذا كان شعوره آنذاك وهو يرى الماء منبسطا بلا حدود، وهو الوحيد الذى يمشى هناك؟ وكيف كان يحس بالموج تحت قدميه؟ هل كان يحس كما نحس الإسفنج مثلا؟ أم الرمل؟ أم كان يحس به صلبا كالارض؟ أم ماذا؟ ثم تموجات الماء، كيف كانت قدماه تقعان عليها؟ بعض المسلمين ينسبون لعدد من الأولياء أنهم كانوا يمشون على الماء، وهو كلام فارغ، فليس معنى أن المعجزات كانت تقع على أيدى السابقين من الرسل أنها ممكنة لكل إنسان. إننا نصدق الله سبحانه حين يقول إن المعجزة الفلانية قد أجريت على يد النبى الفلانى.أما البشر فلا حق لهم فى أن نصدقهم حينما يخبروننا بما يتصادم مع القوانين الطبيعية. فرق بين كلام الله وكلام البشر.

قلت لرفيقى الجامبى: هل تحب أن تكون نورسا؟ قال: نعم. قلت له: وتدخن وأنت نورس؟ (كانت فى يده سيجارة)، فقال: نعم، أضع السيجارة فى فمى وأنا طائر. قلت: لن يكون لك فم، بل ستضعها فى منقارك. فضحك وهو يؤمّن على ملاحظتى! قلت: تصور نفسك وقد أصبحت نورسا، وجلست إلى مكتبك تتعلم العربية، التى ترغب فى دراستها، وتقرأ ترجمة القرآن بالإنجليزية، وأنت واضع ساقا على ساق، وعلى منقارك نظارة، وكلما قرأت صفحة فردت جناحك فقلبتها. أعجبته الصورة فيما يبدو، وبانت عليه الحماسة.

بقينا على الشاطىء ساعتين وربما أكثر وأنا متربع طول الوقت على الرمل الندى لا أحس تعبا فى ساقى أو قدمى، ولم أغير جلستى طيلة هاتين الساعتين. ثم استأذن منى ليذهب فيتوضأ فى المسجد استعدادا لصلاة المغرب. فقلت له: قد ألحق بك، فأنا متوضىء. وبعد أن مشيت وحدى على شاطىء المحيط قليلا أخذت طريق العودة. وفعلا ذهبت فصليت المغرب جماعة فى المسجد، ورأيت حذاءه هناك فى المكان الذى وضعت فيه هَنِى (أى حذائى، وهى أفضل وأوجز ترجمة للتعبير الإنجليزى: "mine" كما سبق أن قلت لك مرارا. أم ترانى لم أفعل؟ فأنا أخشى أن تقولى إن هذا لم يحدث، وتعقبى قائلة: انظر، مع من كنت تتحدث وظننتَها إياى)، ولكنى لم أره هو. وبالمناسبة: الأذان هنا يؤذنه أربعة يقفون عند أبواب المسجد

الخلفية ويرفعون أصواتهم بالأذان معا. وأمس أمطرت السماء عند المغرب وهم يؤذنون، فأذنوا بسرعة ودخلوا يهرولون. وبالمناسبة أيضا هنا مسجد جديد يجرى بناؤه الآن على نفقة السعودية، وهو بظاهر المدينة قريبا من الطريق المؤدى إلى سيريكوندا، ذكرنى بالمركز الإسلامى فى لندن (فيPark Lane)، إذ كان يبنى عندما ذهبت إلى بريطانية منذ إحدى عشرة سنة، وتم بناؤه ونحن فى بريطانيا! وطبعا تتذكرين ذهابنا مع الطفلين إلى هناك مرتين أو نحو ذلك، عندما أخذتِ علاء الدين (أم يمنى؟) معك إلى مقصورة النساء وصليتِ هناك، وكنتما تريانا من فتحات المقصورة الزخرفية ولا نراكما. وتذكرين أيضا زيارتنا لمسجد القاديانيين قريبا من Putney، التى كنت أنطقها ليمنى مخطوفة وأنا أشير إلى "بطنى"، فتضحك. يا سلام! ما أسرع ما تمر الأيام والليالى! وما أسرع ما تنقضى الحياة! ست سنوات تقريبا بكاملها مرت على هذه الزيارات للمسجدين! تذكرين الغروب اللندنى الشاعرى الفاتن ونحن فى فناء المسجد القاديانى، وأنت تتحدثين مع زوجة الإمام الشابة، وأنا ويمنى وعلاء الدين نلتقط التفاح من تحت أشجاره، أو ألتقط بعض الصور للمسجد. غريب أمر هذه الدنيا! نتعجل مرور الوقت تشوقا إلى تحقيق آمالنا غافلين عن أن مروره يقربنا من نهاية عمرنا! وأغرب منه أن أحدا لا يستطيع أبدا أن يقاوم تيار الزمن، فيثبت فى مكانه، فضلا عن أن يسبح ضد التيار. إننى حزين، وأنا متأكد أن هذا الكلام سيثير أشجانك أنت أيضا، وقد تبكين. إننى أعرفك، فنحن متقاربان كما تعرفين، إذ إن عشرة أربع عشرة سنة قد صهرتنا معا ورَجَّتْنا معا وخلطت كلا منا بالآخر، صحيح أننا نختلف، ودائما ما يكون ذلك حول الأشياء التافهة، ولكن من ذا الذى لا يختلف حتى مع نفسه التى بين جنبيه؟ صحيح. صدق أحكم القائلين: "كُلُّ من عليها فانٍ * ويبقَى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"، لا، لا ليست الدنيا بدار سعادة أبدا! وكيف يمكن أن تكون وهى دوارة لا تقف لحظة، ولا تبالى بأحد، وسيفها بتار يقطع كل الرقاب؟ تذكرين الصورة التى أصورها للموت دائما: مخلوقا أثيريا يقف فى طريق السابلة وهو يطوح بمنجله يمينا ويسارا وفوقا وتحتا، ولابد أن يطيح منجله بإحدى الرقاب التى تتصادف أن تكون فى طريق المنجل فى صعوده أو هُوِيّه. ولا أحد يستطيع أن يتوقع الضربة كى يتجنبها، فلا صاحب المنجل يُرَى ولا منجله، ولا أحد يسمع لهما صوتا. إن أملنا فى الآخرة وفى رحمة الله وحنانه. ورحمته وسعت، كما قال وهو الصادق الكريم، كل شيء. إننى أبذل جهدى للفراغ من بناء البيت. ولكنى أحيانا ما أسأل نفسى: وهَبْكَ عشتَ حتى بنيتَه، فماذا بعد؟ ألستَ ستموت وتتركه وتترك كل شيء؟ غير أن

الدنيا سرعان ما تحملنى دوامتها فأنسى هذا، وأستأنف بذل الجهد والمال والعرق. سبحان الحى الذى لا يموت!

عود إلى جامبيا: أعطيكم الآن بعض الأسعار لتأخذوا فكرة عن الشراء والبيع هنا. رغيف الخبز الفينو الكبير بدالاسى وخمسة وثلاثين بتوتو. علبة الحلاوة الطحينية (فى المحل اللبنانى) زنة ٩٥٠ جراما فيما أذكر بخمسة عشر دالاسيا (يعنى نحو خمسة جنيهات مصرية). علبة الفول المدمَّس (أم المدمَّث؟ انظرى القاموس) عبوة ما يساوى عندنا ربع جنيه بسبعة دالاسيات وربما أكثر قليلا (يعنى أزيد من جنيهين، أو بجنيهين ونصف)، علبة الورنيش المتوسطة التى لا تزيد عن نصف جنيه فى مصر بسبعة دالاسيات. علبة اللبن بسبعة دالاسيات، والزجاجة بعشرة (التى كنا نشتريها أول عهدنا ببريطانيا بعشرة بنسات)، وصابونة الغسيل المتوسطة بدالاسى ونصف (حوالى خمسين قرشا). علبة السردين المبططة الصغيرة (زنة ١٢٥ جراما) بثلاثة دالاسيات ونصف. زجاجة الزيت (عبوة لتر) باثنى عشر دالاسيا ونصف (أكثر من أربعة جنيهات مصرية). ولكن أجرة أتوبيس الأقاليم هنا مثلها تقريبا فى مصر، إلا أن الفرق أن الأجرة هنا موحدة، حتى لو لم تركبيه إلا داخل بانجول فقط وهو عائد (أو ذاهب) من (أو إلى) المدينة المتجه إليها... وهكذا، وهكذا.

الصراع بين الإسلام والنصرانية فى إفريقية شديد. وأوروبا، التى هجرت النصرانية، تلعب بها فى إفريقية لمحاربة الإسلام، دين المستقبل إن شاء الله وحامل لواء حضارته (فقط لو عقل المسلمون وركزوا على المهم ونبذوا الخلافات التافهة حول الأمور التافهة التى تدل على العقول التافهة لمن يشغل نفسه ويشغل الناس معه بها). إن الإسلام هو دين المنطق واللياقة والدهاء والثقافة والذوق المرهف والتخطيط الذكى. إن رسول الله عليه السلام قد هزم كل أعدائه حتى ركعوا عند قدميه (وإن ظل متواضعا إلى آخر حياته عليه أفضل الصلاة والسلام)، وجاء أتباعه فحطموا روسيا وأمريكا عصرهم تحطيما صاعقا، وقلبوا التاريخ وأجبروه على السير فى ركابهم. ولكن انظرى حال المسلمين اليوم وحال كثير من الذين نصبوا أنفسهم مصلحين دينيين أو نصبهم بعض الناس تَرَىْ عجبا. أهولاء يمكن أن يصمدوا لخبث الأوربيين ومكرهم وحسن تخطيطهم وتضافرهم ضدنا؟ أخشى أن أقول إننى أشك فى هذا كثيرا. ومع ذلك فإن الإسلام، الإسلام المستنير، الإسلام كما ينبغى أن يفهم (لا هذا الفهم الضيق الغبى الذى يعشش فى كثير من الأدمغة، وأصحابها يظنون

أنهم يحسنون صنعا)، فمنتصر لا محالة. كنت أتحدث منذ أسبوع تقريبا مع شاب سيراليونى (غير أحمد، لا أذكر اسمه الآن. هل هو عبد الله؟)، وعرفت منه أن رئيسهم نصرانى رغم أن الأغلبية الساحقة (كما هو الحال فى جامبيا) مسلمون، بل إن الرؤساء الأربعة الذين تولوا حكم البلاد منذ الاستقلال كلهم نصارى. قال ذلك الشاب: إننا فى سيراليون لا نهتم بهذه النقطة كثيرا، وبخاصة أن ثمانين أو تسعين فى المائة من الوزراء مسلمون. قلت: بل ينبغى أن يهتم السيراليونيون بذلك. وحتى لو كانت مقاليد الأمور بيد الوزراء (وأنا أشك فى ذلك جدا، وإلا فما هذا الحرص من جانب الأقلية النصرانية والقوى الأوربية التى تساندهم على أن يكون كل الرؤساء نصارى)، فإن رئيس البلاد هو رمز على شخصيتها وآمالها ودينها. كذلك علمت منه أن الرئيس الحالى لسيراليون قد تزوج من فتاة مسلمة. كل ما حدث أن قبيلتها فد أصرت على أن يتم الزواج فى المسجد، وقد كان. يا فرحتى! (لا أحب أن يفوتنى أن أنبه إلى أنى لست إلا ناقلا، فإذا كان ثمة خطأ فى بعض المعلومات فليس الذنب ذنبى).

قبلاتى ليمنى، الفراشة الرقيقة (كما يسميها علاء الدين) وللأسد الصغير، وتَسْلَمون لى. والسلام عليكم ورحمة الله– بابا.

أحبائى الثلاثة، السلام عليكم من بانجول.

أحب الآن أن أذكر لكم المرتب الذى يقبضه بعض من أعرفهم هنا لتقارنوها بالأسعار التى ذكرت لكم بعضها لتتضح الصورة: مثلا عاملة الاستقبال بالفندق، وهو فندق من الدرجة الثانية، تتقاضى (على حسب ما قالت لى) مائتين وسبعين دالاسيا. أما يحيى وهو زميل لها فيتقاضى أكثر من ذلك (على ما قالته أيضا لى)، إذ كان هو قد ذكر لى قبلها بيوم أنه لا يتقاضى أكثر من مائتى دالاسى ينفق منها على المسكن خمسة وأربعين، على حجرة صغيرة تضمه هو وزوجته وتوأمها: آدم وحواء. وهذا التوأم ليس، كما ستظنون من الاسمين، ولدا وبنتا بل بنتين. وقد أخبرنى أن العادة، إذا ولد للإنسان ولد وبنت معا، أن يسميهما آدم وحواء، وقد أفهمته أن آدم اسم رجالى، ولكن على من تلقى عظاتك يا داود؟ أما شيهو فيتقاضى من صاحب الفندق مقابل إعطائه لأولاده السبعة (وهم فى سن واحدة تقريبا من زوجات مختلفات. عنده أربع، رأيت منهن ثلاثا مرة واحدة) دروسا خصوصية فى اللغة العربية مائة وخمسين دالاسيا. كذلك ذكر لى الأستاذ كيباجان (رئيس قسم فى مدرسة ثانوية؟) أنه يقبض نحو ألف دالاسى فى الشهر.

الزواج بأكثر من واحدة (إلى أربع) شائع هنا. صاحب الفندق، كما قلت، متزوج بأربع. عضو البرلمان الذى قابلته أول يوم وحكيت لكم عنه قبلا متزوج بأربع. الدكتور تشيرنوكا السنغالى علمت أنه متزوج باثنتين: واحدة من جامبيا، والأخرى من بلده. قابلت منذ يومين شابا سنغاليا فى المسجد، وعلمت منه أنه متزوج بواحدة، ولكنه أخبرنى أنه متى استطاع فسيتزوج أخرى لأن هذا حقه. قلت له: ولكن زوجتك سيؤلمها هذا. فقال: لا يهم رضاها أو عدمه، لأن هذا جائز. ومع ذلك فقد قابلت بعض الذين ليس لهم إلا زوجة واحدة، ولا ينوون أن يضيفوا إليها أخرى، ويرون أن الواحدة أفضل. إلا أننى لا بد أن أضيف ما سمعته من الشيخ حامولى (الإبيارى الأصل، الذى يشبه د. جابر البَرَّاجة فى امتلائه وميله إلى القصر وضحكته وكونه من قريته) أنهم هنا ينظرون إلى المتزوج بواحدة فقط على أنه ربع رجل، والمتزوج باثنتين على أنه نصف رجل... وهكذا، وأن النقاش احتدم بينه مرة وبين الأستاذ ماسخن كاه، الذى عد الاقتصار على واحدة تشبها بالأوربيين. ومن الواضح أن الأستاذ كاه يخلط بين الاقتصار على واحدة (وليس فى هذا أدنى تشبه بالأوربيين) وبين مهاجمة الشخص من الأصل لفكرة الزواج بأكثر من واحدة وعَدّه ذلك تخلفا

وهمجية. إن جواز التزوج بأكثر من واحدة فى الإسلام ليس معناه أنه لابد أن يتزوج كل مسلم باثنتين وثلاث وأربع، فإنه ما لم تدعُ إلى ذلك ضرورة فإن الاعتيادى أن يقتصر الرجل على واحدة.

ومن الزواج إلى منتوجات الزواج: الأطفال. وقد وضحت لكم من قبل كيف تحمل الأم رضيعها على ظهرها. واليوم أصف لكم كيف تربطه إلى ظهرها. إنها تنحنى كأنها تركع، وتضع الطفل على ظهرها فلا يسقط بل يمسك فى جلبابها بيديه ورجليه (كيف؟ لا أدرى)، فتفرد هى عرض القماش خلف ظهره وتعقد أطرافه على صدرها، وربما اكتفت ببرمها دون ربط، وإذا بالطفل جالس فى موقعه فى أمان الله. وقد لاحظت أن الأطفال لا يبكون رغم الحرارة والرطوبة والعرق (اللهم إلا أمس، حينما كنا واقفين فى الصف منتظرين الكمسارية أن تحن علينا وتفتح الباب الخلفى لنركب فى أول الخط وترحمنا من النقرة. لقد بكت البنت التى كانت المرأة الواقفة فى الطابور أمامى تحملها، فأخذت ترج جسمها كله تهدهدها لتسكت، فكانت تسكت ثانيتين وتبكى مثلهما (وهكذا: آء. آء. آء. آء. آء. آء. آء). وقد لاحظت أن العرق يلمع على جبهتها وتكاد حباته أن تدخل عينيها. وأظن أن وهج الشمس كان يضايق عينيها. فإذا أضفنا إلى ذلك حرارة جسم أمها وشدة الرباط عرفنا سر معاناتها، ولكن لماذا لا يبكى الأطفال الآخرون وظروفهم هى نفس ظروفها؟ كما ترون، لقد عدت من حيث بدأت. ومع ذلك فعندما سألت يحيى (العامل بالفندق) الليلة عن سر عدم بكاء الأطفال الجامبيين قال: ولكنهم يبكون أحيانا. فكان جوابى: ولكنى لم أر إلا طفلا (طفلة فى الحقيقة) واحدا يبكى.

ومن الأطفال إلى الأحجبة المعلقة فى رقابهم أو على أذرعهم أو فى أوساطهم (ومثلهم فى ذلك الكبار) المسافة ليست بعيدة. والأحجبة هنا من الجلد فيما يبدو. ولونها بنى فاتح، وبعضها داكن، ولكن ربما من أثر الغبار والاتساخ بفعل الزمن. وكنت أحاضر فى الأسبوع الماضى عن "العمل فى الإسلام"، واستطردت إلى مهاجمة الاعتقاد فى الأحجبة، فانبرى أحد الطلبة (الأساتذة) قائلا: ولكنها لا تحوى شيئا إلا اسم الله وآيات من القرآن. قلت له:ولكن القرآن لم ينزل لهذا. قال: وما الفرق بين هذا وبين ما كان النبى يفعله إذ كان يدعو ويمسح براحتيه على وجهه وجسمه الشريف؟ قلت: إن الدعاء شىء، والاعتقاد فى تأثير الكلمة الصماء شىء آخر. فلم يبد لى أنه اقتنع. ولم أحاول أن أضيع فى هذه النقطة وقتا آخر. وأذكر أنى سمعت

نفس الكلام من قبل (ربما كان الشيخ سعيد هو الذى قاله لى بوصفه الحجة التى يسوغون بها تعليقهم الأحجبة).

وقد حكى لى أحمد السيراليونى أن ثعبانا ضخما كان مختبئا وراء كومة من قطع الخشب فى السوق أثار الذعر بين التجار والشارين، فما كان من أحد الجامبيين إلا أن قصد إلى بيته القريب فعلق حجابيه على ذراعيه، وعاد عارى الصدر فاشتبك مع الثعبان، وكان فى ضخامة أحمد (على ما صوره لى هو نفسه)، وحاول كل من المتصارعين هزيمة الآخر فوقعا معا على الأرض، إلا أن الرجل استطاع أن يقبض على رأس الثعبان (أو على ذيله. لا أذكر بالضبط) وينهض ويديره فى الهواء عدة مرات ثم يضرب به الأرض ضربة كانت هى الضربة. وقد أخذ الناس ينظرون إليه فى إعجاب، أما هو فأخذ الثعبان ومضى (وسلخه وباع جلده بمبلغ كبير)، وقد فتح ذراعيه ووسع ما بين ساقيه. والسؤال: ما مدى صحة هذه الرواية؟ لا أعرف، فلست إلا ناقلا، كل ما أخشاه أن يظن علاء الدين أن ذلك فى مستطاع كل رجل فيطلب منى أن أصارع ثعبانا وأغلبه ليفتخر هو بأبيه! على كل حال فالشاهد فى هذه القصة هو دور التعويذة، التى ذهب الرجل إلى البيت ليحضرها ويعلقها (فى الحقيقة تقول القصة إنه علق تعويذتين) قبل أن يدخل فى صراع مع الثعبان الضخم.

لاحظت اليوم أنه مكتوب فى الأتوبيس (فوق المرآة التى أمام السائق): ممنوع التدخين (وهذا بالطبع مكتوب فى كل أوتوبيسات الدنيا تقريبا، فهو أمر مفهوم، ولكن كان مكتوبا تحته): ممنوع البصق (وهم هنا يبصقون كثيرا).

جاء أمس ذكر الشيخ سنجالى (حاكم إقليم بريكاما السابق)، فقلت للأستاذ كيبا إن مما له مغزاه عندى أن الحكومة لا تضع قيودا على زوار هذا الرجل وأنكم اقترحتم بمنتهى البساطة أن نزوره. فقال: آه، هذا معناه أن عندنا ديمقراطية. ألست تقصد هذا؟ قلت: بلى. فحكى لى كيف أن الانقلابيين قد ورطوه معهم وأرغموه على التحدث فى الإذاعة لصالحهم، وأن النار أطلقت فى تلك الأثناء على زوجته فكسرت ساقها، التى لم يكن علاج إلا بالبتر (اللهم احفظنا واحفظ المؤمنين وعَوِّضْ هذه السيدة عن ساقها ساقا فى الجنة تذرعها بها ذهابا وجيئة كما يحلو لها)، وأنه لموقفه هذا قد أقيل من منصبه. الحقيقة أن هذه المسألة تشغلنى. لقد سمعت من قبل، كما لابد أن حكيت لكم، أن الانتخابات بين الرئيس جاوارا ومنافسيه على الرئاسة كانت انتخابات نزيهة، فلا تزييف ولا عبث بالصناديق ولا تهديد للناخبين مما هو معروف فى دول

العالم الثالث وبلاد المسلمين (إن كان هناك انتخابات رئاسية أصلا). ولكن ما معنى النص فى دستور جمعية "تقدم الإسلام" على أن الجمعية لا تشتغل بالسياسة (أو ما فى هذا المعنى)؟ أيا ما يكن الأمر فلا مُشَاحَّة فى أن جامبيا بلد فقير ومتخلف. وإنى لأتساءل: وأين ثمار الديمقراطية إذن التى نتغنى بها دوما؟ ألسنا نقول إن الديمقراطية هى سبيل التقدم والإنتاج والرغد... إلخ، إلخ؟ من الواضح أن الفيصل فى ذلك هو الأمة وكدحها وجِدُّها وإرادتها فى أن تعيش حياة كريمة، وإلا فلا فائدة فى الديمقراطية أو غيرها. ومع ذلك فإن الديمقراطية أفضل من الاستبداد. ولا أظن عاقلا يختار الاستبداد (مع التخلف) على الديمقراطية (مع التخلف أيضا). ولكن ما العمل حين يكون الاختيار (إن صح أن فى مثل هذه الأمور اختيارا) بين الاستبداد مع التقدم وبين الديمقراطية مع التخلف؟ إن روسيا مثلا دولة متقدمة (هى إحدى القوتين العُظْمَيَيْن)، ومع ذلك فالحكم فيها قائم على الاستبداد. والله إنها لمسألة محيرة. ورغم هذا فأنا أفضل الحرية (وطظ فى كل شىء آخر!). بالمناسبة كل الذين سألتهم من الجامبيين عن الرئيس جاوارا أَثْنَوْا عليه وعلى تواضعه وحبه للشعب وما إلى ذلك، إلا شابا قابلته اليوم اتهمه بضعف العقل، وقال إن الناس تقول إن زوجته تضربه على رأسه، وإنه لهذا لا يفكر سليما. استغربت ذلك وقلت له إنه الوحيد الذى يقول هذا. فقال: إن الشعب فقير، والبلاد مملوءة بالمشاكل، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئا. أليس معنى هذا أن إدارته للبلاد فاشلة؟ لم أشأ أن أقول له إن تحميل الحاكم مسؤولية الفساد كله هو موقف غير سليم، لأن الشعب لا ينبغى أبدا أن يقف موقف المتفرج، إذ البلد بلده والمصلحة مصلحته، وهو الذى يقاسى ويعانى ويدفع الضرائب ويدخل السجون ويُقْتَل. وأى حاكم لا يُنْتَظَر منه أن يبكى على مصلحة الناس، إذ ما دام يعيش مرفها هو وزوجته وأولاده ومَنْ حوله ويسكنون القصور الشامخة فما الذى يعنيه من شقاء الشعب؟ ولكنى فضلت الصمت.

رأيت أمس فى المدرسة بالمصادفة زوجة الأستاذ سليمان فاى، الذى ضَيَّفَنا فى بيته، فلم أعرفها لأول وهلة، ثم لما تأكدت أنها هى (بسؤالها) شكرتها على ما فعلته هى وزوجها وأولادها لنا، وأخبرتها أننى كتبت لك عن كل شىء فى تلك الأمسية، حتى الصور المعلقة فوق حوامل الستائر (ولكن يبدو لى أننى لم أكن حدثتك عن هذه الصور). فسرها ذلك، وسألتها: كيف عرفتِ أن الطعام المصرى هو طعام لذيذ كما قلتِ لنا فى بيتكم؟ قالت: لقد كنا فى بريطانيا (فى برايتون) سنة ٧٥- ١٩٧٦م، وكان لنا جيران مصريون، فكانوا يدعوننا إلى بيتهم ويقدمون لنا الأطعمة المصرية الشهية. عمار يا مصر! وعمار يا مصر مرة أخرى، إذ

تدفعين المرتبات السخية للمبعوثين الأزهريين (كالشيخ حامولى والشيخ سعيد وزملائهما الخمسة، وزوجاتهم وأولادهم) فى إفريقية وآسيا لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامى. إن الأزهر ليس جسدا هامدا كما كنت أظن. صحيح أن كثيرا من خريجيه ضعاف، بيد أن تلك بلوى عامة. والجود، كما يقولون، من الموجود!

كذلك تنفق المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) الأموال الطائلة لنفس الأغراض (على هيئة مرتبات للأساتذة ومكافآت تشجيعية للطلبة وكتب ومعاجم وتليفزيون وفيديو وآله كاتبة تكتب الحروف بالتشكيل ومن غير تشكيل، تطوير أحد الفنيين المغاربة فيما عرفت من الدكتورين المغربيين، وإن كنت نسيت اسمه. قد أسأل عن ذلك فيما بعد). وكل ذلك سوف نتركه وراءنا. وقد اقترحت أن يكون عدد الكتب المعطاة للطلبة أكثر وأن يُعْطَوْا أيضا شرائطَ مسجلًا عليها النطق الصحيح للحروف والكلمات والجمل العربية. وللمنظمة برامج متعددة منها البرنامج الذى ننفذه الآن، وبرنامج لتعميم استعمال الأبجدية العربية فى كتابة اللغات الإفريقية، وآخر لنشر الكتب العربية والإسلامية التى تخدم الأغراض التى قامت من أجلها، وغير ذلك.

ياه، لقد نسيت أن أقبّل علاء الدين حتى أشبع، وبعد ذلك أقبل يمنى قبلة أو قبلتين. سامحانى. سلامى إليكم جميعا، ولعلكم بخير وسعداء. دائما أفكر فيكم، وأدعو الله لكم، وبخاصة فى الفجر. ولعلكم تفكرون فى بابا كما يفكر فيكم. وإلى اللقاء بعد عشرة أيام إن شاء الله– بابا.

(الواحدة إلا عشرا من صباح الأربعاء ٥/٨)

بانجول / الأربعاء ١٩٨٧/٨/٥

زوجتى العزيزة، يمنى الرقيقة، علاء الدين الأسد الصغير. سلام الله عليكم.

أولا: الحمد لله أن مصر هزمت ساحل العاج. ولابد أن سَدِيكِى (صديقى) علاء الدين قد سعد بهذا الانتصار، الذى أرجو الله أن يتوَّج بالبطولة ليرتفع اسم مصر فى الكرة ما دمنا لا نستطيع شيئا كثيرا فى المجالات الأخرى. وأنا أخالف أشد المخالفة بعض المتدينين المغلقين الذين ينظرون إلى الرياضة على أنها شىء ضد الدين، أو فى أحسن الأحوال شىء تافه أو لا يليق. ذلك أن الكرة والرياضة عموما نشاط من أنشطة الحياة الكثيرة: فيه التنافس والحماسة والمتعة والفن والتسلية، وفيه كذلك بناء الأجسام. وهو ينشط الاقتصاد والسياحة ويرفع الروح المعنوية الوطنية إذا أحرزت انتصارا. وإنى لا أذكر أيام الصبا والشباب، حين كنا نلعب الكرة ونذهب إلى القرى والمدن المجاورة لنلعب هناك، إلا وجاش قلبى كله وغمره موج عذب لذيذ يغسل عنه أُوَار الحاضر وهجيره. ولا أذكر أن الكرة قد شغلتنى قط عن الصلاة أو الكتاب أو الدراسة. ومن هنا فإنى لا أفهم هؤلاء المتدينين (إن كانوا حقا متدينين) الذين يحرمونها ويجرمونها أو على الأقل يزدرونها. إننى أرى فى هذا الموقف منهم عداوة للحياة والاستمتاع باللهو البرىء. ويا ليتهم، إذ يفعلون ذلك، ينفقون وقتهم فيما هو مفيد، بل يقضونه فى الكلام السخيف والمناقشات العقيمة التى لا ترفدها قراءة واسعة عميقة. إنهم مغرمون بالشذوذ. وأحسب أن الناس لو انصرفت عن الكرة وكرهتها لأقبلوا عليها هم وشددوا النكير على من لا يلعبها. إنهم ثقلاء الروح والدم والعقل. وهم فى تصرفاتهم شيوخ فى أرذل العمر. لا ترقى بهم أمة، ولا يُحَبّ من خلالهم الدين، بل هم ينفّرون بعض من عنده استعداد طيب للتدين وطاعة الله لأنهم يقدمون الدين للناس على أنه تكفير وقيود بلا معنى، وتشدد من أجل التشدد، غافلين عن أن الإنسان إذا عبد ربه وأدى واجبه وثقف عقله وراعى اللياقة (التى يفتقرون هم إليها) فى تعامله مع الآخرين فهو المسلم الذى يحبه الله ورسوله وترقى به أمته. ثم إن الترويح مطلوب بنص كلام الرسول، فما بالكم إذا كان ترويحا جادا كالكرة؟

أستغفر الله. أرجو ألا أكون قد جاوزت الحد فى نكيرى على هؤلاء الناس. ولنعد إلى الكرة (رغم أنوف بعض الناس). أمس كنت آتيا من المدرسة، فأوقفنى صبى يعرفنى فى السوق كان واقفا على مقربة من بعض الشبان الذين يستمعون إلى مذياع فى يد أحدهم (على الموجة القصيرة فيما يبدو)، وقال: إن مصر

تلعب الآن مع ساحل العاج. فسألتهم عن النتيجة فقالوا: صفر/ صفر. فتركتهم لبعض حاجاتى ثم عدت بعد نحو خمس دقائق، فقالوا: أصبحت النتيجة ١/١. أحرزت مصر هدفا ثم تعادلت ساحل العاج، فشعرت بالضيق، وبخاصة أن نهاية المباراة لم يبق عليها إلا دقائق. ثم انتهت المباراة بالتعادل، وأنا أقول فى نفسى: يبدو أن لاعيبا قد عادوا إلى ممارسة هوايتهم المعروفة عنهم: أن يَحُمّونا. وهذا تعبير يمكن أن يضاف إلى تعبيرات الأستاذ المستكاوى الظريفة عن "ارتفاع ضغط الدم" و"نفاد أدوية الضغط من الصيدليات" وغيرها. وهو مأخوذ من اللغة العامية (أقول: اللغة العامية، لأن التعبير الفصيح فيما أعرف هو بالبناء للمجهول، فيقال: "حُمَّ فلان" لا "حَمَّ فلان فلانا"). ما علينا. ذهبت اليوم ولم يكن عندى شغل إلى السوق لعلنى أجد شيئا أشتريه لكم (لأن اليوم الوقفة هنا، ومادامت الوقفة اليوم فالعيد متى؟ طبعا غدا. أقول هذا لأن بعض العاملين فى الفندق ذكروا لى أن عيد الأضحى فى السعودية كان أمس. فهل هذا صحيح؟ يا ألطاف السماوات! أو بتعبير الخواجة بيجو (بتاع "ساعة لقلبك". انظروا كيف تهب نسائم الماضى العليلة البليلة!): "يا النفوح بتاع الأنا!" يبدو أنه لا أمل فى المسلمين مدة مائة سنة قادمة. إنهم لا يتفقون على شيء، ولا حتى على ما لا خلاف فيه. وهل ثمة خلاف على الهلال؟ ولكن ماذا تقولون فى التخلف وأهله؟ إن التخلف إذا ضرب فى أمة انقلب حالها وذهبت البركة عنها. ما علينا. نرجع إلى الكرة. وفى السوق قابلنى صبى الأمس، وهو يصيح: لقد هزمت مصر ساحل العاج ٢/١. فاستغربت وقلت له: ألم تقولوا لى إنهما تعادلتا؟ قال: لقد كان ذلك فى الشوط الأول. فحمدت الله. وواضح أنه قد حدث أمس سوء تفاهم. لقد ظننت أن المباراة انتهت، على حين أن الذى انتهى كان هو الشوط الأول فقط.

ثانيا: هناك عدة أخطاء وقعت فيها فى خطاباتى السابقة. ذكرت فى خطاب مبكر أن الرخم قد أكل عين الساحر، ولكنى عندما سألت أحمد (السيراليونى) ثانية عن الموضوع قال إنه قد خطفها وطار بها فقط. فكان لابد من تصحيح القصة كما سمعتها، وإن كان المتوقع أن يأكل الرخم العين بعد ذلك، وإلا فلماذا خطفها؟ لا أظن انه خطفها ليضعها فى بنك العيون عندهم لربما احتاجوا إليها إذا فقد رخم عينه (هذا طبعا إذا كانت القصة أصلا قد وقعت كما رُوِيَتْ لى، وقد قلت إنى مجرد ناقل). كذلك سميت فى بعض خطاباتى الجمعية الإسلامية التى زرنا أعضاءها مرتين (فى سيريكوندا): "جمعية تقدم الإسلام" والصواب "جمعية التقدم الإسلامى". أيضا تكررت تسميتى لأصغر وحدة نقدية جامبية بـ"بتوتو". والصحيح "بتوت" (من

غير الواو الأخيرة. والباء بالمناسبة مضمومة). ثالثا: فاتنى أن أذكر لكم أن الشيخ سنجالى كان فى بداية الأمر من معضدى الرئيس داودا جاوارا، ووقف معه فى الانتخابات، وذكر لنا أنهم حين كانوا يقطعون الغابة لاستصلاحها للزراعة لم يجدوا إلا ثعبانا واحدا، وكذلك تمساحا واحدا فى المستنقعات، وقتلوهما طبعا، وأن الموظفين والعمال الذين أرسلتهم الدولة للعمل فى المزرعة (لا أدرى لماذا) لم يكونوا يعملون، بل كانوا يضيعون وقتهم فى الحديث مع النساء، فطردهم. يبدو أن هذا حال القطاع العام وما يشبهه فى كل الدنيا أو على الأقل فى البلاد المتخلفة كبلادنا. كذلك لم أقل لكم إنه بمجرد أن قدمنا إليه على باب بيته انخرط فى خطبة حماسية كأنه يعرفنا ونعرفه منذ زمن طويل. ولم يقلل من حماسته وانقاذ عينيه وإشاراته بذراعه ورأسه أن كلامه لم يكن متصلا، بل كان متقطعا ليعطى المترجم (الأستاذ كيبا جان) فرصة لنقل ما يقوله إلى اللغة العربية، التى يتقنها الأستاذ كيبا إلى حد كبير. وكانت حماسته نارية. وقال إنه رفض رفضا باتا أن يرسل أولاده إلى المدارس الأوربية هنا وإن الناس اتهمته بالجنون، وإنه لم يعر ذلك أدنى مبالاة أو التفات، بل أرسل ولديه إلى السعودية: أحدهما إلى مكة، والآخر إلى المدينة، ليتعلما اللغة العربية والدين الإسلامى. أذكر هذه التفصيلات لألقى الضوء على الصراع بين الإسلام والنصرانية، الذى أنا متأكد تأكدى من القلم فى يدى الآن أنه سيحسم إن شاء الله لصالح ديننا كما حسم من قبل عندما بزعت أضواء شمسه، التى طهرت العقل والضمير والقلب البشرى من جراثيم الوثنية والكهانة والخرافات الأسطورية التى غزت حتى الأديان السماوية وحولتها إلى مهازل ومساخر وقيود حديدية كبلت العقل الإنسانى ومرغته فى وحل الجهل والاستبداد الدينى حتى انتهى الأمر بأوربا إلى الكفر جملة. وأنا أؤكد أن النصر هو من نصيب الإسلام لأنه دين المنطق والفطرة البشرية والتقدم. إنه دين المستقبل. وهذا عنوان كتاب يشاغلنى منذ فترة أرجو أن يمكننى الله من وضعه كما آمل. كل ما فى الأمر أنه لابد من أن تظهر الأمة التى تستحق حمل رسالته على مسرح التاريخ المعاصر. وحتى الآن لم تظهر هذه الأمة (وهذا رأيى). إننى أقرأ ما يكتبه كثير من الذين يسمون أنفسهم: مصلحين دينيين، فأقول فى نفسى (ولكِ طبعا): إن هؤلاء لو كتب لهم أن يقودوا المسلمين فلن يقودوهم إلا إلى الهاوية. إنهم يطمسون فضائل الإسلام من حرية فكرية وعقيدية، واحترام للعلم، وحب للحياة، ومرونة نفسية. إنهم ينظرون إلى الحياة بمنظار قائم ومن ثَقْب إبرة، ويظنون أن هذا الثَّقْب هو الدنيا كلها بما رحبت. وهم يبدون غراما مرضيا بالتمسك بالقشور والتفاهات، ومولعون

بالشذوذ، ويظنون الذوق واللياقة من الأمور المخالفة للإسلام. إن أحدهم مثلا يحرم كتابة القصة، كما قلت لك (أو لعلك قرأتها بنفسك فى الصحيفة التى يكتب فيها). والسبب؟ السبب أن القَصَّاص من هؤلاء يقول: خرج "س" من بيته غضبان، فوصل إلى عمله وهو ينفخ من الغيظ بعد أن تشاجر مع الكمسارى (مثلا)، مع أن شيئا فى هذا لم يحدث، فهو إذن يكذب، والكذب حرام. نفس هذا المفتى (مفتى آخر الزمان) يردد الأسماء التى يطلقها بعض المؤرخين العرب القدماء على فراعنة مصر، وهى أسماء عربية لا أدرى من أين أَتَوْا بها، يرددها بثقة جاهلة كأنه لا يعرف أن التاريخ المصرى قد كتب من جديد على ضوء النصوص الهيروغليفية التى حلت شفرتها بعد قراءة حجر رشيد، والمكتشفات التى توصل إليها علماء المصريات. إن هذا الرجل الذى تطالعنا صورته فى الصحيفة وعلى وجهه ابتسامة الرضا التام عن نفسه ما هو إلا قطعة متلكئة من الماضى. والعجب العاجب أنه يظن نفسه مصلحا دينيا وسياسيا! ألم أقل إنه "مفتى آخر الزمان"؟

رابعا: عند عودتى من المحيط، الذى أذهب إليه تقريبا كل يوم وأعود بعد المغرب بقليل، أشاهد أسرابا من الخفافيش (الوطاويط) تطير حول الأشجار القريبة من الفندق. وهى خفافيش ضخمة، الواحد منها فى حجم ثلاثة أو أربعة من خفافيشنا، ولونها رملى داكن. ويمكنكم أن تضموا هذه المعلومة إلى ما أرسلته لكم من قبل من معلومات عن بعض الطيور التى شاهدتها هنا.

خامسا: الناس هنا عموما وديعون. ولم يعودوا يطلبون منى الفلوس إذا ما قابلونى. فى الأيام الأولى لى هنا كنت ذاهبا إلى المحيط من الطريق الظليل الذى يمشى فى خط مستقيم من الشارع الذى فيه الفندق إلى المحيط، وهو طريق شاعرى، عند الغروب، فقابلنى رجل جامبى، فسلمت عليه كما هى عادتى هنا، فما كان منه إلا أن قال (على ما أذكر الآن): هل معك فلوس تعطينى؟ أنا أحب الفلوس (I love money)، فضحكت وقلت له: وأنا أيضا أحب الـmoney. كلنا نحب الـmoney، وأكملت لنفسى: والـmoney بيحب مين؟ صحيح الـ money بيحب مين؟ هذه هى المسألة كما يقول شيكسبير.

سادسا: عرفت شابا جامبيا عند الشاطىء أصبحت أراه فى الفترة الأخيرة كل يوم تقريبا اسمه مختار. ملامحه حلوة. وهو لا يشتغل، كما أخبرنى، ويريد أن يسافر إلى الخارج إلى قريب له فى الدانمارك ليكمل دراسته هناك. وهو وحيد أبويه، اللذين لا يزالان "فى" قيد الحياة (أو "على" قيد الحياة"؟ والله حاجة تحير يا زوجتى!). وفى المقابلة الأولى بدا لى عصبيا ساخطا على الدين. لكنى لما قابلته ثانية جنحت بنا المناقشة

(لا أدرى الآن كيف) إلى الدين، فسألنى عن الله والحياة بعد الموت والحساب الإلهى، وهل يعقل أن الله سبحانه سوف يقذف بالذين لا يصلّون إلى قعر الجحيم. فأجبته بما فتح الله به عليَّ محاولا أن أعرض له الأمر بصورة عصرية وتمثيلية حية، ومركزا على مفهوم "الضعف البشرى"، الذى يخبرنا الله سبحانه وتعالى فى القرآن بأنه محسوب حسابه، ومفرقا بين الخطإ العمد المتكرر والخطإ الناشىء عن الاندفاع وعدم التبصر، الخطإ الذى يعقبه ندم، ويعزم الإنسان بعده على ألا يعاوده (مع أنه قد يضعف ثانية ويرتكبه)، ولافتا نظره إلى الرحمة الإلهية. أليس الله رحيما؟ كل ذلك وأنا أشير له إلى القمر والمحيط والنورس والقوارب وأدخل كل ذلك فى كلامى، وأعرج على أحزان البشر وتسرب الزمان والأمل فى الله. ولا أدرى كم بلغ كلامى هذا من نفسه. لكنى لاحظت أنه صار حريصا على انتظارى والمكث معى إلى أن أعود، ودائما نضحك معا وأعابثه. وأمس (لم أره اليوم) قال لى ونحن نفترق: إنه يريد أن أباركه. استغربت ما قال، فشرح لى أنه يقصد أن أدعو له ثم أمسح بكفى على رأسه. فقلت له: إننى مثلك أحتاج إلى من يدعو لى. ثم دعوت له. ووجدتنى أقبل رأسه وأنا أصافحه مصافحة الوداع. لقد أصبحت أحب هذا الـone chosen كما أسميه (المختار). الساعة الآن العاشرة والنصف مساء. سلام عليكم– بابا

زوجتى العزيزة، يمنى، علاء الدين. السلام عليكم من بانجول.

علمت أمس أن مصر هزمت مالاوى ١/٢، فسرنى هذا فى يوم العيد (أخبرنى الأستاذ الحامولى أن العيد فى كل البلاد العربية كان يوم الأربعاء ١٩٨٧/٨/٥).

أمس صليت العيد فى المسجد الجامع فى بانجول، وهو قريب جدا من الفندق، وعلى نفس الرصيف (أقل من دقيقة مشيا). كانت الصلاة فى نحو التاسعة والنصف صباحا (الشروق هنا يتأخر)، وكنت قد أُخْبِرْتُ قبلها بيوم أنهم يصلونها فى الأرض الفضاء المسورة التى على يسار الخارج من الفندق (أما المسجد فعلى اليمين. ولكن المسافة بين الفندق وتلك الأرض الفضاء أقل منها بينه وبين المسجد). ولكنى لما خرجت من الفندق فى نحو التاسعة والربع (أو الثلث) وجدت الناس آتين من جهة هذه الأرض الفضاء وفى يد كل منهم سجادته (أو حصيرة صلاته)، فشعرت بالأسف والأسى لفوات الصلاة علىَّ، فعدت إلى الفندق كاسف البال، بيد ان محمد (أحد عمال الفندق) أخبرنى أن الصلاة لمّا تبدأ، وأنهم عائدون من الأرض الفضاء لأنها مبللة (إذ نزل المطر طول الليل). فأخذت حصيرة الصلاة التى بالفندق واتخذت طريقى إلى الجامع. كان الناس جالسين على حصرهم على رصيفى الشارع: الرصيف الذى فى ناحية المسجد، والرصيف الذى يقابله. وكان هناك أولاد وبنات. وبعض البنات كن عاريات الرأس. وكان الجميع يلبسون الملابس الوطنية المزركشة الجميلة. وكان الشارع قبل المسجد بقليل مغلقا ببعض الحواجز الحديدية التى يقف عندها بعض رجال الشرطة بملابسهم الزرقاء. وكان هناك فى الأرض الفضاء التى أمام الفندق من الناحية المقابلة سيارات كثيرة. فكرت أن أجلس على الرصيف مع الجالسين، لكنى قلت لنفسى: لقد رأيت هؤلاء الذين هنا، وإذن فلأدخل إلى الجامع لأرى الإمام وجموع المصلين فى الداخل. ودخلت، فأخذ الناس يشيرون إلى بعض الأماكن الخالية فى الصف الأول والصف الثانى، غير أنى اخترت مكانا فى الصف الثالث. وكانت هناك الإذاعة تذيع شعائر الصلاة على الهواء. كان المذيع يقف فى الصف الأول لا يفصل بينى وبينه إلا رجل واحد، وكان يذيع بصوت خفيض. وأخذ الناس يكبرون، ولكن بطريقة مختلفة عن طرائقنا، فالناس عندنا يكبرون معا، أما هنا فإن واحدا يكبر والناس تردد وراءه ما يقول. كذلك لم أسمعهم يرددون: "اللهم صَلِّ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد... وسَلِّمْ تسليما كثيرا". وقد تكرر التكبير مرتين فقط. ثم قمنا إلى الصلاة، ونادى المؤذن: "اصطفّوا صَفًّا" (قالها

مرتين). وبعد الصلاة وقف أحدهم يخطب من ورقة باللغة العربية، وبجانبه شيخ يترجم ما يقول إلى اللغة المحلية، ومعهما اثنان يحملان لهما الميكروفونين: الميكروفون الداخلى وميكرفون الإذاعة. وكان هناك شاب واقف على المنبر وقد عقد يديه على صدره ولا يفعل أو يقول شيئا. ولا أدرى من كان ولا سبب وقوفه هناك على هذا الوضع. ولفت نظرى فى الصف الأول رجل يلبس بدلة صيفية زرقاء يشبه الممثل عادل أدهم (قبل أن يكبر) إلى حد ما، ويبدو أنه من منطقة الشرق الأوسط. وكنت أخالسه النظر، وأظن أنه كان يفعل مثلى. ولا أدرى من هو، وإن كنت أظن أنه سفير إحدى الدول الشرق أوسطية، وبعد الخطبة سألت أحد المصلين: هل الرئيس جاوارا موجود فى المسجد؟ فقال كلاما أظن معناه هو: ألا تعرف الرئيس جاوارا؟ إنه هو الواقف هناك. وأشار إلى الصف الأول ناحية اليمين قليلا، غير أنى لم أحقق من يشير إليه، فقال لى: إذا نظرت من النافذة فسوف تراه يركب السيارة السوداء (سيارة مرسيدس). وفعلا نظرت من النافذة فوجدته يجلس فى المقعد الخلفى من السيارة ناحية اليمين وهو ممسك بعليقة الحزام. ولم يكن معه بالسيارة أحد إلا السائق، ولم أر أحدا يصفق له أو يهتف أو يصيح: "بالروح بالدم (والبعداء ليس عندهم أى دم!) نفديك يا فلان". وانصرف الرجل فى هدوء. قلت: هذه نقطة فى صالحهم تضاف إلى النقط الأخرى التى سجلتها لهم فى خطاباتى السابقة. كذلك ينبغى أن أذكر أنى حين دخول المسجد كنت قريبا من الرئيس الجامبى (لم يكن فى بالى آنذاك أنه موجود)، بل إن بعضهم قد أشار إلىّ أن أجلس فى الصف الأول قريبا منه (قريبا منه على ما تكشَّف لى بعد ذلك). ولم أحس بتوتر فى المكان: لا فى المسجد ولا خارجه لدرجة أنى، كما قلت لكم، لم يخطر على بالى أن رئيس الجمهورية موجود أصلا.

ولدى عودتى إلى الفندق وجدت الأستاذ الحامولى ينتظرنى بالصالة، فسلمت عليه وتمنيت له عيدا سعيدا. كان قد جاء ليدعونى إلى الغَدَاء معه فى بيته. وفى أثناء حديثنا وصل الدكتور مرحاب، الذى لم يدرك الصلاة، فدعاه هو أيضا. قدمت للأستاذ الحامولى كوبا من الشاى الخفيف، الذى شربه غير مقتنع أنه شاى. ثم أخذتهما إلى دكان قريب واشتريت لنا جميعا كوكاكولا. ثم مشينا معه قليلا وودعناه. وبعد انصرافه ذهبت أنا ود. مرحاب إلى المحيط. وكان الجو غائما والحرارة معتدلة جدا، فمشينا على الشاطئ قليلا، وكل منا يتحدث عن ماضيه وأهله ودراسته. وذكرتُ بخيرٍ جدتى، رحمها الله، التى لولاها ما كنت تعلمت. لقد كانت بمائة رجل. إننى دائما أدعو لها أن يجزيها الله خير الجزاء وأن يدخلها الجنة. ثم ذهبنا

إلى فندقه وجلسنا قليلا حول حمام السباحة. وكان هناك بعض الأوربيات الحيزبونات (أو الحيزبونين، فَـ"هُمْ" إلى الرجال أقرب) ثم عدنا إلى فندقى. ومن هناك أخذنا الأتوبيس إلى بيت الشيخ الحامولى. وقد أعطيت كلا من ولديه عشرة دالاسيات (وهو مبلغ ليس بالكثير أبدا)، لكن حين اكتشف ذلك أعاد لى الفلوس وقد احمر وجهه وبان عليه الحرج، وعد ذلك إهانة. ولم أشاركه طبعا هذا الرأى، فذلك أقل ما ينبغى فعله. وهو على كل حال صاحب اليد العليا. وقد سويت المسألة سريعا إذ قلت له: إذا لم تدع الطفلين يأخذان مصروف العيد فسوف ننصرف. من الواضح أنه رجل حساس وفيه شهامة، غير أن المسألة لم تكن تستأهل كل هذا. واليوم عيد. وقد قدم لنا الرجل مشكورا طعاما كثيرا متنوعا جعلنا لا نشعر أبدا أننا غريبان، بل أحسسنا أننا نقضى العيد فى مصر بين أهلينا وأصدقائنا. وسقانا كوكاكولا مرتين، وأحضر شايا لم أشاركهما شربه. وكنت قد تناولت فى الصباح قُرْصَىْ كوزافيل لأن بوادر سعال قد ظهرت على.وعند عودتى من عند الأستاذ حامولى كنت أحس بالإرهاق الشديد. وفى الفندق أخذت كلما أسعل أشعر كأن سكينا حاميا يقطع فى حلقى وصدرى. فتناولت قرصين آخرين وأنا أدعو بعزيمة أن يكون فيهما الشفاء. وقد كان، فإنى عندما استيقظت من النوم عند الغروب كان هذا السعال الجاف قد ذهب. ومع ذلك فما زالت عقابيل البرد موجودة. وقد قضيت البارحة ليلة مضطربة قلقة، إذ يبدو أن درجة حرارتى كانت قد وصلت إلى أقصاها. خفت أن أموت هنا فينكسر قلب الطفلين، ولكن يبدو أن "عُمْر الشَّقِى بَقِى"، فهأنذا أكتب إليك بعد أن زال معظم التعب، اللهم إلا سعالا خفيفا يعد بجانب سعال الأمس "لعب عيال".

لم أحدثكم عن خطبة الجمعة الماضية التى ألقيتها فى المدرسة، كانت عن "وحدة المسلمين"، هذه الوحدة التى لا يشعر الإنسان معها عادة بالغربة إذا زار بلدا إسلاميا، على عكس الحال فيما لو زار بلدا غير مسلم. وقلت إن عوامل هذه الوحدة هى الإيمان بالله ووحدانيته والملائكة والرسل والكتب السماوية، والعبادات الواحدة التى تؤدى فى أى بلد إسلامى بنفس الطريقة التى تؤدى بها فى كل البلاد الإسلامية الأخرى (على عكس الحال مثلا بالنسبة للكنائس النصرانية المختلفة)، والتشريع الواحد (وإن كان عدم تطبيق الشريعة الإسلامية كاملة قد جعل القوانين الوضعية التى تختلف من بلد إسلامى إلى آخر عاملا من عوامل الفرقة إلى حد ما. وقلت إن الأمل أن يعود المسلمون إلى شرعهم يستلهمونه فى كل قوانينهم)، واللغة العربية (التى يتكلمها كل العرب وكثير من المثقفين من البلاد الإسلامية غير العربية، إذ إن عددا من هذه

الدول قد جعلتها اللغة الثانية بعد لغتها القومية أو الرسمية. وتمنيت أن تحذو الدول التى لا تفعل ذلك حذو الدول التى سبقت إليه) وكذلك على العرب أن يتوسعوا فى أقسام اللغات الشرقية التى يتكلمها إخواننا المسلمون غير العرب، والعادات والتقاليد المتقاربة (لأنها مستقاة فى كثير من الأحيان من الإسلام) والثقافة الإسلامية. وأضفت أن هناك أوجه اختلاف بين المسلمين: من ذلك الجنسُ واللونُ. وقلت إن الإسلام قد حسم هذه المسألة إذ لم يُقِمْ أى اعتبارات لهذه الفروق، وجعل مدار الأمر كله هو التقوى والعمل الصالح. وهناك كذلك بعض العادات والتقاليد التى تختلف من بلد مسلم إلى آخر. وقلت إننا ينبغى أن نقيس عاداتنا وتقاليدنا بمقياس الإسلام، فما كان متفقا مع الإسلام أو على الأقل لا يخالفه فحبا وكرامة، وما كان متناقضا معه فلابد من نبذه. ثم اختلاف اللغات، الذى ذكرت أن المسلمين يمكنهم التغلب عليه بمعرفة لغات بعضهم البعض، وبخاصة اللغة العربية لأنها لغة القرآن والحديث والتراث الإسلامى. وكانت هة الخطبة هى أول خطبة أخطبها منذ نحو ثلاث عشرة سنة أو أكثر.

كانت هناك ندوة منذ عدة أيام عن الإسلام فى غرب أفريقية. وتطرق الحديث إلى أحد المجاهدين المسلمين (وأظن أن اسمه هو الحاج عمر فوتى). وسأل أحد الأساتذة: هل قُتِل الحاج عمر فوتى أم مات ميتة طبيعية؟ وأين المكان الذى دفن فيه؟ وقد حاول د. تشيرنوكا، الذى درس هذا الموضوع، أن يجيب على هذا السؤال. وكان رأيه أن الفرنسيين هم الذين قتلوه، إن كان موضع دفنه غير معروف، وبان لى من النقاش أن بعض الناس يعتقدون أنه لم يمت بل مختبئ فى غار، وسوف يظهر ثانية. وهى عقيدة قريبة جدا من عقيدة إخواننا الشيعة الاثنى عشرية فى الإمام الغائب. وكان سؤالى: متى اختفى الحاج عمر فوتى؟ فقالوا: فى الستينات من القرن الماضى. قلت: إذن فقد مات مائة فى المائة، ولا جدال فى هذا، وإلا فأين هو؟ ثم إن أقصى عمر يعيشة الإنسان فى عصرنا هو مائة وثلاثون عاما مثلا. وقد مر على ولادته أكثر من ذلك كثيرا، وأضفت: إننى عملى النزعة، وأرى حلا لمثل هذا الخلاف (بالنسبة للإمام الغائب فى إيران والحاج فوتى فى غرب إفريقية) أن تجند الدولة المعنيّة أو أصحاب هذه العقيدة فريقا من المسكتشفين يمسحون سراديب وغيران المنطقة التى يقولون إن الإمام قد اختفى فيها، فإن وجدوه (وهذا مستحيل)، وإلا فلنضع حدا لهذا الجدل الذى لا ينتهى. وطبعا لن يقتنع بكلامى هذا من يعتنقون هذه العقيدة. ذلك أن معظم الناس لا يؤمنون بعقولهم بل بعواطفهم ومواريث أسلافهم.

وتطرق الحديث إلى الكلام عن الدجال، فأشرت إلى ما يوجد فى أحاديثه من تناقض، فروايات تقول مثلا إنه أعور العين اليمنى، وأخرى تليها مباشرة تقول إنه أعور العين اليسرى، وأن أحد الأطباء الشبان (من قريتى) ممن لا يريدون أن يعملوا عقولهم ظن أنه يستطيع أن يحل هذا التناقض بالادعاء بأنه أعور العينين الاثنين. فقلت له: معنى ذلك أن الروايتين كلتيهما غير صحيحتين، لأن كلا منهما تقول إن إحدى عينيه فقط هى الفاسدة. ثم كيف فاتك يا أيها الطبيب أن الأعور العينين لا يسمى "أعور" بل "أعمى"؟ رد الدكتور تشيرنوكا (السنغالى) قائلا: أنا أؤيد الدكتور إبراهيم عوض مائة فى المائة، ولكن ما دامت هذه الأحاديث قد وردت فى كتب الصحاح فإننا لا يمكننا إلا الإيمان بها. ثم ابتدأ يوفق بين الحديثين قائلا: إنه سيكون فى المرحلة الأولى أعور العين اليمنى. فلم أدعه يكمل، وأخذت أنظر إليه مبتسما وأنا أراوح بين إغلاق عينى اليمنى وعينى اليسرى. وقلت: هل تريد أن تقول إنه سيعمل هكذا؟ إن هذا شغل الحواة والبهلوانات. فضحك الطلبة وضحك هو، وقال: لقد غلبتَنى. لقد كنت سأقول: إنه سيكون فى البداية أعور العين اليمنى مثلا، وبعد ذلك تعورّ عينه اليسرى أيضا. ولكن هذا معناه أنه سيكون أعمى فى النهاية لا أعور.

هذا، وأنا دائما فى كلامى هنا أركز على أننا لا ينبغى أن نشغل أنفسنا بما لا يفيد، وألا نستبق الحوادث. وقضية كقضية الدجال لم يحن ميعادها بعد (إن حان). فلنؤجلها إذن حتى يظهر (إن ظهر). ومثلها نزول سيدنا عيسى عليه السلام. أما الآن فإن مشاكلنا هى التخلف والجهل والمرض والمذلة أمام الأوربيين واحتلال فلسطين والفرقة والعداوة بين الدول الإسلامية والضعف الاقتصادى والتفاهة السياسية والاستبداد. فلننصرف إلى عبادة الله والعمل الجاد للتغلب على هذه المشاكل أولا، وإلا خسرنا الدنيا والآخرة.

وبعد، فكيف قضيتم العيد؟ هل اشترت يمنى وعلاء الدين البُمْب، الذى لا أحبه؟ هل قضيا وقتا سعيدا؟ هل ذهبا إلى جدتهما أم هى التى جاءت إليهما؟ والآن السلام عليكم. والساعة تقريبا الواحدة إلا عشرا، وبقى على صلاة الجمعة نحو ساعة– بابا.

أعزائى الثلاثة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لم أكتب إليكم منذ يومين لأن نزلة البرد كانت شديدة علىّ رغم أن السعال الجاف القاتل كانت قد هبطت حدته إلى حد كبير، وكان جسمى مضعضعا، وليلى أرقا، وإذا نمت انتابنى حلم واحد تقطعه اليقظة، ولكن سرعان ما يعاودنى إذا غمض جفنى ثانية. أما اليوم فإنى أشعر بتحسن كبير، ومع ذلك فمازالت هناك الكحة والبلغم، ولكن على خفيف.

مصر تلعب اليوم مع الكاميرون فى المباراة قبل النهائية. وأخاف أن يتذكر لاعبونا عادتهم السخيفة وينهزموا، وهو ما لا ينبغى أن يكون، إذ لا يصح أن يقال إن الرياضة غالب ومغلوب، فإن هذا يكون مقبولا لو لم تكن مصر قد دخلت ميدان كرة القدم من عشرات السنين. ثم إن تاريخ مصر وعدد سكانها لابد أن يوضعا فى الاعتبار. غير انى أعود فأقول: وأى شىء فى مصر صحّ حتى تكون كرة القدم هى أيضا صحًّا؟ إن هبوط الهمة والانكسار الروحى والرضا بالدنية هى فى مقدمة العوامل المسؤولة عن تخلفنا فى كل الميادين. إن أول خطوة فى طريق التقدم هى الشعور بالعزة والكرامة وأنه لا يليق بك أن تتخلف وتنهزم. غير أن الأغبياء عندنا، المتنطعين السميكى الجلود البليدى الإحساس، دائما ما يتعللون بضعف الإمكانات، كأن الإمكانات ليست نتاجا بشريا، وكأن ضعفها ليس إدانة لهم وعلامة على كسلهم وبلادتهم وتقاعسهم. إنهم أشبه بتنابلة السلطان. يريدون أن يناموا ويفتحوا أفواههم، فتسقط العصافير مشوية منزوعة العظم فيها وتنزلق إلى معداتهم وتهضم نفسها بنفسها غافلين عن أنه لا يسقط فى فم النائم على هذا النحو إلا الذباب. ألا شاهت الوجوه!

لو رأيتمونى أمس وأنا محطم الجسد والنفس وليست بى أدنى رغبة إلى الكلام ما صدقتم أن الذى يكتب إليكم هو شخص الأمس. صدق أحكم الحاكمين: "وخُلِق الإنسان ضعيفا". "وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر كان يَؤُوسا". إنكِ دائما ما تقولين إنه سبحانه رحيم، ولكنه أيضا جبار. والمرض والموت والبراكين والزلازل والسيول بعض مظاهر جبروته. وهو صحيح. وهذا الجبروت جزء من الحكمة الإلهية، لأننا إذا كنا بهذه الفرعنة والشيطنة ونحن عرضة للأمراض والعجز والموت والإفلاس فكيف كانت ستكون فرعنتنا وشيطنتنا لو لم يُذِقْنا الله بعضا من جبروته حينا بعد حين؟ لكنى أعود وأتساءل: هل كان لابد أن نُخْلَق على هذا النحو؟ ألم يكن من الممكن أن نظل فى الجنة فلا مرض ولا

قلق ولا كدح ولا موت ولا هَرَم ولا زكام ولا سعال يقطِّع صدر زوجك وحلقه تقطيعا؟ إلى هنا وأرفع راية التسليم وأقول: سبحانه، لا يُسْأَل عما يفعل. يا إلهى، أنا راض بقضائك، ماضيةٌ فىَّ وعلى رقبتى ورأسى وعينى حكمتك وإرادتك! فافعل ما بدا لك، فأنا عبدك الخاضع. ولكن رحمة بنا وبأجسامنا وقلوبنا، فأنت أرحم الراحمين!

عود إلى السعال: جاءنى الدكتور مرحاب اليوم فى نحو التاسعة. وخرجنا إلى السوق، وفى الطريق عرَّجت على مستشفى بانجول، فقادنى الحارس إلى أقصى المستشفى من الداخل. وهناك فى سقيفة ظليلة واسعة مفتوحة الجوانب رأيت الطبيب فى صدر المكان، وكلما وفد مريض جلس على دكة على يساره بالدور، فأخذت دورى، ولم يكن هناك إلا امرأة متقدمة فى السن كشف عليها وكتب لها الروشتة، ثم أشار إلىّ، فشكوت له من بعض الألم فى أذنى اليمنى ومن شعورى بانسدادها. فأدخل منظارا فيها (وفى اليسرى) وأخبرنى أن بعض الإفرازات متراكمة فيها وأن بها بعض الحبوب الصغيرة. قلت له: إننى لا أستطيع أن أنظفها عند الوضوء بسبب هذه الفقاقيع. وكشف كذلك على حلقى، وكتب لى ثلاثة أنواع من الأقراص. ولما فرغت سألته عن قيمة الكشف، فقال إنها دالاسى للجامبى واثنان لغير الجامبى، ولكنى سأعفيك. فأخرجت من جيبى ما كان معى من عشرات الدالاسيات، وقلت له: بل خذ، إنى أشكرك على رقتك ولطفك. لكن رفض بتاتا. فأخذت الروشتة وشكرته بحرارة، وانصرفت إلى صيدلية المستشفى قريبا منه، فأخذت الأقراص التى كتبها لى. وهم يضيعون الأقراص فى أكياس من البلاستك يوجد قريبا من فوهاتها خطان بارزان من البلاستك أيضا يدخل أحدهما فى الآخر فإذا هى مغلقة محكمة الإغلاق. كذلك فهذه الأكياس على وجهها مساحة بيضاء يكتب لك الصيدلى فيها الجرعة ومواعيدها. وتسهيلا للأمر فإنهم، إذا كانت الجرعة (كما هو الحال معى فى نوعين من الأقراص التى أخذتها اليوم) قرصين ثلاث مرات يوميا، يرسمون ثلاث دوائر وفى كل دائرة خطان صغيران أفقيا. وفوقها كتابة بهذا المعنى. أشياء صغيرة ليست عندنا للأسف، ولكنها مفيدة وهامة، وقد تترتب على عدم وجودها نتائج خطيرة فى البلاد التى تتفشى فيها الأمية. ثم إنها لا تكلف شيئا.

والآن فإنى أتساءل: ترى لو لم أمرض وأذهب إلى المستشفى أفكنت أستطيع أن أصف لكِ ما وصفت؟ غير أن إبليس اللعين (وأنا أحس به عند أذنى اليسرى السليمة يوسوس لى بعد أن أفسد أذنى اليمنى)

يزغدنى ويقول: "لا بل كنت تستطيع أن تذهب مع أحدٍ مَنْ تعرف من الجامبيين إلى المستشفى وترى وتسمع ما أنت بحاجة إلى رؤيته وسماعه دون أن تقاسى هذه المُقَاسَيَات الفظيعة طوال الليالى الثلاث الماضيات". فانظرى كيف يحاول هذا اللعين أن يفسد علىَّ رضاى بالمقدور. إننى أنظر الآن حولى لعلى أجد شيئا أقذفه به (فردة حذاء قديمة مثلا) فلا أجد إلا حذائى الوحيد شبه الجديد عند الباب، وأخاف أن أقذفه عند البلكونة (وأنا إلى جوارها مباشرة) حيث أسمعه يجرى الآن بعد أن علم بنواياى فلا أُحْكِم الإصابة وتطير الجزمة فى الشارع وتقع فى قناة المجارى، ولذلك سأكتفى بقولى "منك لله يا بعيد!"

هذا ما كان من أمر أحداث اليوم (هذه هى طريقة جرجى زيدان فى سرد أحداث رواياته)، أما ما كان من أمر أحداث الأمس فأقول، وبالله التوفيق ("وبالله التوفيق" هذه من عندى، وليست من عند زيدان): كنت نائما فى الضحى متعبا مرهقا مضعضعا مكسرا، وإذا بالباب يخبط.

– من؟

– يايا ("يايا" هذا هو يحيى أحد عمال الفندق). ففتحت الباب وأنا لا أزال متعبا مرهقا مضعضعا مكسرا:

ما وراءك يا عم يحيى؟

– امرأة بيضاء وشابان إفريقيان ينتظرونك تحت (فى صالة الفندق) ويريدون أن يَرَوْك.

– ينتظروننى أنا؟ إننى لا أعرف أى امرأة هنا، هل أنت متأكد أنهم يريدوننى أنا بالاسم؟

– نعم، فقد ذكروا أنهم يريدون الدكتور إبراهيم.

– طيب. سوف أغسل وجهى وأنزل بسرعة.

وأخذ عقلى يدور. ترى من تلك المرأة البيضاء التى تعرف مكانى وتأتى لتسأل عنى؟ قلت: ربما كانت فاطمة (فأنت بالنسبة لهم امرأة بيضاء، مثلما أنا رجل أبيض "طوباب"). وقد يكون أمر جلل قد حدث فى مصر فاستقللت أَبْكَر طائرة وأتيتِ. ولكنى قلت لنفسى: إن زوجتك ليست خفيفة الحركة ولا جريئة إلى هذا الحد.

المهم: كانت المرأة البيضاء (أو كما يقول إخواننا المستشرقون وبعض إخواننا اللبنانيين: "الامرأة البيضاء") سيدة من هولندة (٤٨ سنة) وكان الشابان اللاأبيضان هما اثنين من طلبتى. وقد أتيا بها لأتحدث

معها عن الإسلام، الذى اعتنقته حديثا، قبل أن يذهبوا معها إلى إمام بانجول، الذى يقع الفندق فى الطريق إلى بيته. وأخذت أسألها عن دوافعها للدخول فى الإسلام، وكيف عرفتْه، وما إلى ذلك. فذكرتْ أنها رُبِّيَتْ على حرية الفكر فى بيتها، فإن والديها (أبوها مات، وأمها لا تزال حية) رغم إيمانهما بالله لم يكونا يعتنقان دينا معينا، وأن بيتهم كان يضم القرآن مع الكتاب المقدس وكتب الأديان الأخرى، وأنها وجدت نفسها فى الإسلام، الذى يمتاز ببساطة ومنطقية وبعدم اختلاف المذاهب فيه ذلك الاختلاف الحاد الذى يوجد بين الكنائس المختلفة. قلت لها: أرجو ألا تندمى على هذا القرار. ولاحظى أنك سترجعين إلى هولندة حيث كل شىء معاد للإسلام. ثم إن التحول إلى الإسلام ليس هو مجرد طريقة جديدة للعبادة بل إنه يستتبع تغيرات كثيرة وخطيرة حتى فى آراء الإنسان ومواقفه السياسية.

وقد ذكرت لى أن فى هولندة أربعة عشر مسجدا (أرجو ألا أكون قد أخطأت فى الرقم)، وأن هناك محطة تليفزيونية عربية. فقلت لها: أظن صاحبها مصريا. قالت: نعم. قلت لها: لقد سمعت عنه مرات من قبل. وذكرتْ لى أن اسمها "مارينا"، وأنها غيرته إلى "فاطمة"، وأنها تشتغل مرشدة سياحية، وأنها طافت بالعالم كله تقريبا. وكنا نتحدث بالإنجليزية. وكنت قد طلبت لهم أولَ ما نزلتُ كوكاكولا (ثمنها بالفندق ضعف ثمنها فى الدكان، ولكن معلهش. كله فى سبيل الإسلام يهون).

وقد نسيتُ مرضى وأنا أقوم بجولة سريعة فى الإسلام أرشدها إلى بعض المعالم هنا وهناك فى القرآن، وشخصية الرسول ولطفه ورقته وعظمته واحترامه للعقل البشرى وحرية التفكير والعقيدة، وقلت لها: إن المستشرقين يتحملون وزر تشويه الإسلام ومحاولة تلطيخ صورة نبيه الكريم. وإننى إذ أصدر هذا الحكم لا أصدره إلا بعد أن عايشت هؤلاء الناس طويلا مباشرة أو فى كتبهم، وتبين لى أنهم يعرفون الحق ولكنهم يعاندون. وكما هى العادة فى مثل هذه المناقشات كانت هناك مقارنة بين التوحيد والتثليث، فقلت لها: المضحك أن يعيبنا النصارى لأننا لا نؤمن بالثالوث. إن الأحرى بالباطل أن يخجل ويستخذى، ولكن الباطل هنا غليظ الوجه! وكان رأيها: إننا (تقصد المسلمنن فهى قد أصبحت واحدة منهم) نؤمن بعيسى (فتدخل أحد الشابين قائلا: بل إن إسلامنا لا يكمل إذا كفرنا به أو بأى رسول آخر)، ولكن النصارى لا يؤمنون بمحمد، فكيف يكون ذلك؟ قلت لها: ولكنك تَنْسَيْنَ أنهم إذا آمنوا بمحمد (عليه الصلاة والسلام) فلن يعودوا كما كانوا نصارى. وعلى كل حال، فليس الأمر هو هذا فقط، إذ هم يؤمنون بأنه ابن الله وأنه صُلِب

ليكفِّر عن البشرية خطاياها، وهى عقيدة غربية وملتوية. وقد جاء الإسلام فحطم هذه الأفكار معلنا أنه "لا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى". كذلك فالألوهية فى الإسلام (وفى المنطق أيضا) لا يمكن أن تكون اثنين أو أكثر، إذ لو كان هناك إله مع الله فمعنى ذلك أن كلا منهما سيكون محدودا: هنا ينتهى هذا الإله، وهنا يبدأ ذلك الإله. ومادام محدودين فهما ليسا بإلهين، فالإله هو المطلق: الأول والآخر والظاهر والباطن. ولذلك قال القرآن: "إنما الله إله واحد"، أى أن مفهوم الألوهية نفسه يتناقض مع الثنوية والتثليث وتعدد الآلهة بصفة عامة. إن كل ذلك وثنية لا تليق بالعقل البشرى، وبخاصة فى عصر العلم والنور.

أمس صليت الصبح حوالى السادسة (صباحا طبعا، والّا إيه؟)، وكان لا يزال باقيا على الشروق وقت طويل (أحيانا أصلى فى السابعة إلا ثلثا ولا تكون الشمس قد طلعت بعد). وخرجت إلى الشرفة وأنا ألملم طوق الجلباب حول صدرى حتى لا تزداد العلة التى بى. كان الشارع هادئا، والظلام لا تزال له اليد الطولى، وإن حاول الضياء أن يتفلت من قبضته، وكان هناك بلبل أو عصفور يزقزق، وخفاش يصرخ من الأشجار البعيدة قليلا عن الفندق صراخا فيه بعض مشابه من صوت الغراب، ولكن ليس فيه "غاق". وجدت نفسى أهمس بلا تفكير: أصبحنا وأصبح الملك لله. يوم جديد. ثم دخلت ونمت. ما أسرع ما تمر الأيام. لقد دخلت الآن من ثلاثة أيام فى الأسبوع الرابع منذ تركى لكم. فكيف حالكم؟ كيف يمنى؟ إننى مشتاق إليها كثيرا وأتخيلها وأنا أرفعها من الأرض وأحتضنها وأقبلها عندما أرجع بمشيئة الله. كيف حال علاء الدين؟ إن ابنى وابنتى طيبان فيما أرى، وأنا أخاف عليهما (ولكن كل الآباء يَرَوْنَ أولادهم هكذا). اللهم لا تفجعنى فيهما ولا تحرمنى منهما وترفق يا إلهى بقلوب الآباء والأمهات، وكذلك بقلوب الصغار، لكن صوتا يهمس لى من داخلى: ماذا تريد إذن؟ هل تريد من الله أن يلغى الموت؟ ولكنى لم أقل ذلك، بيد أن طمعى فى رحمته كبير، فهل ذلك كثير على الله، وهو الذى يريد ولا يراد له؟

والآن إلى أول أمس (ثانى أيام العيد): ذهبت لصلاة الجمعة فى المسجد المجاور، وهو المسجد الجامع ببانجول فيما أعلم. وهم هنا يتبعون مذهب الإمام مالك رضى الله عنه، الذى يقول بأن صلاة الجمعة والعيدين ينبغى أن تتم فى أكبر مساجد البلد وأن يجتمع الناس كلهم هناك لذلك، ولا يصح أن تقام مثل هذه الصلوات فى أكثر من مسجد إلا إذا ضاق المسجد بالناس. وقد لاحظت نفس ما لاحظته فى صلاة العيد من صلاة الناس أمام المسجد على رصيفه والرصيف الذى بالناحية الأخرى. وقد ظننت أن الإمام ربما يخرج

بعد الخطبة من الباب الذى بالمحراب (على ما وصفته لكم من خطاب سابق) ويذهب إلى الرصيف البعيد ويؤم الناس من هناك، غير أن الأستاذ ماسخن كا قال: إن المالكيين لا يرون فى تقدم المأمومين على الإمام أى بأس ما دام المسجد يضيق عنهم. ولم أشأ أن أقول له: ولكنكم تقولون إنه إذا ضاق المسجد بالناس فيمكنهم إقامة الصلاة فى أكثر من مسجد. ومع هذا فإنكم تَنْسَوْن ذلك وتُضْطَرّون إلى قبول تقدم المأمومين على الإمام. لم أشأ أن أقول له هذا لأنى لا أحب ان أقف عند مثل هذه الاختلافات، فما دامت الصلاة جائزة عند مذهب من المذاهب على هذا النحو أو ذاك فهى مقبولة إن شاء الله. والعبرة بالنية والخشوع فى العبادة والإخبات للمولى سبحانه. وعلى ذكر الأستاذ ماسخن كا (محمد) أحب أن أذكر ما قاله لى قبل صلاة الجمعة من أنه لم يسمع منذ أن عاد من ليبيا بعد تخرجه من الجامعة (منذ نحو ثمانى سنوات؟ أظن ذلك) بحالة تحول واحدة من الإسلام إلى النصرانية. فلما قلت له إن بعض الأساتذة الذين عندنا بالمدرسة يحدثوننا عن خداع المبشرين لبعض الأطفال الجامبيين بالمال والهدايا والكتب وتشويه الحقائق وفتنتهم عن دينهم قال: ربما كان ذلك فى الريف بعيدا عن بانجول. وعلى كل حال فالأمر الآن يختلف عنه قبل الاستقلال

هذا ما أردت أن أذكره حتى تكون الصورة كاملة بين يديك. والحقيقة يعلمها الله، وما أنا إلا ناقل. وقبل أن أنسى أيضا، وإن لم تكن له علاقة بما نحن فيه، أحب ألا يفوتنى ذكر اسم الأستاذ المغربى الذى طور الألة الكاتبة العربية وأضاف إليها التشكيل. إنه الأستاذ أحمد لَخْضَر (الأخضر) غزال. وكان الخطيب يقرأ الخطبة غيبا باللغة العربية من غير أن يكون هناك من يترجم ما يقول (على عكس يوم العيد). وكانت الإذاعة تذيع شعائر الصلاة. وقد تنبهت لذلك وأنا خارج من باب الفندق، إذ كانت عاملة الاستقبال جالسة بين البابين على حصيرة استعدادا لسماع الخطبة من المذياع والصلاة وراءه. وقد رأيت يوم الجمعة عقالا ودشداشة كاللذين رأيتهما يوم العيد، وكان لابسهما فى هذه المره أيضا أفريقيا وليس خليجيا. وبعد الصلاة لم يكبروا (الذى أعرفه أن الشافعية، وهم الذين درست مذهبهم أيام الطلب فى الأزهر، يكبرون عقب كل صلاة حتى عصر آخر يوم من أيام التشريق).

وبعد الصلاة ذهبنا مع الأستاذ ماسخن كا (أنا ود. مرحاب، الذى اتصلت به هاتفيا من فندقى حيث كنت أنا وماسخن فحضر إلينا) إلى سيريكوندا حيث كنا مدعوين على الغداء. وجاء الحاج يوسف إمبو (أحد أعضاء جمعية "التقدم الإسلامى") بسيارته الستروين القديمة الظريفة فأخذنا إلى بيته فى سيريكوندا.

وهناك قدموا لنا طعاما جامبيا: أرزا أحمر ولحما، ثم لحما مشويا. وكنت قد شبعت فلم آخذ منه). كان الأرز باللحم موضوعا فى طبق من الصاج المطلى بالمينا كبير ومغطى بطبق مثله، وبعد الطعام وزعوا علينا أكياسا من النايلون معقودة (عقدة منها فيها)، تحتوى على شراب أحمر مسكَّر بارد. وهم يثقبونها من أحد ركنيها السفليين ثقبا صغيرا بأسنانهم ويمصون ما فيها. ولكنى اعتذرت. وعند انتقالنا إلى الطنف فى الهواء لتبادل الأحاديث وسماع الأولاد والبنات حافظى القرآن مُرِّرَ علينا طبق من الفول السودانى المنقوع فى ماء مسكَّر (سبق وصفه). وعند انصرافنا أعطَوْا كلا منا كوبا من الورق وملعقة من البلاستك وفى الكوب نوع من الحلوى (آيس كريم تقريبا مع جيلى. لا تضحكى من "تقريبا" هذه، فأنا، كما أنى ناقلٌ فقط بالنسبة للروايات، آكِلٌ فقط بالنسبة للطعامات. لاحظى "آكِل" على وزن "ناقِل". و"طعامات" تبقى على وزن إيه؟ لعنة الله على السجع وسنينه!) وبعد أن أكلت ما فى الكوب وقفت به متحيرا، فقالوا "ارمه"، فقلت: أين؟ قالوا: فى أى مكان. فألقيته هو والملعقة بجانب السور، وأنا أقول فيما بينى وبين نفسى: معذرة يا جامبيا! أنا العبد المأمور!

وفى الطنف تبادلنا الأحاديث. وكان نصيبى أن أكون أول المتكلمين، ثم تبعنى د. مرحاب. ورغم أنى كنت مرهقا ومريضا ومحتاجا إلى النوم، ورغم أنى لم أُعِدّ شيئا أقوله، فقد فتح الله بكلام لا بأس به ساعدنى على أن أتدفق فيه أنه كانت أمامى الفرصة لأفكر جيدا فى كل جملة أقولها قبل التلفظ بها، إذ إن الأستاذ ماسخن كا كان يترجم ما أقول إلى لغتهم أولا بأول. وكان كلامى عن تخلف المسلمين وتطلعنا إلى اليوم الذى نصبح فيه أقوياء: سياسيا واقتصاديا وعلميا، ونفسد خطط أعدائنا، بل ونفتح بلادهم كما احتلوا بلادنا واستنزفوا ثرواتنا، ولكن نسير فيهم سيرة العدل. وقلت: نرجو أن يكون جيل الطفل الرضيع الذى بالداخل (اسمه "على"، وهو ابن الحاج يوسف من زوجته الثانية (أو الثالثة. لست متأكدا). الحاج يوسف عنده أربع زوجات) أسعد حالا من جيلنا. وبعد د. مرحاب تكلم عدد من أعضاء الجمعية وركزوا على أهمية مساعدة المنظمة لجمعيتهم. ورأيت واحدا منهم يجمع للجمعية بعض المال من الأعضاء الموجودين، فدفعت أنا أيضا عشرة دالاسيات كما دفعوا. وكنت قد دفعت لعلى الصغير عشرة دالاسيات أخرى عندما أخذنا أبوه ليرينا إياه بالداخل. كان الصغير نائما، وكان نظيفا وملفوفا بقماشة بيضاء نظيفة. وكان راقدا على السرير قريبا من النافذة، وحوله بعض النسوة.

وكان من بين من تكلم من أعضاء الجمعية السيدة التى وصفتها فى خطابى الذى وصفت فيه اجتماعنا وعشاءنا فى بيت الأستاذ سليمان فاى، وقلت إنها مديرة. أخبرونا أنها مديرة إحدى المدارس (لا أدرى: إعدادية أم ثانوية؟). وكان وجهها جادا، وفيه لمسة حزن، وكان صوتها هادئا وهو يأتينا من الناحية الأخرى من الطنف (على شمالنا، وعلى يمين الخارج من البيت، فإنى كنت من الذين يواجهون الباب). أشارت فى حديثها إلى أن الإسلام لا يفرق بين الألوان (وقالت: "كما قلتم فى حديثكم". الحقيقة أن أحدا منا لم يشر إلى هذه النقطة، ولكنى ذكرت أن الإسلام لا يقيم وزنا لفوارق الجنس. وقلت إنه رغم الخلافات فى الجنس واللغة وبعض العادات والتقاليد فقد شعرت منذ أول لحظة وطئت فيها أرض جامبيا أنى بين أهلى وعشيرتى). واستطردتْ قائلة ما معناه أنه إذا كانت بشرتهم سوداء فهم لا حيلة لهم فى ذلك لأن الله هو الذى خلقهم هكذا (وخزتنى هذه الإشارة قليلا). كما قالت: إننا نحن النساء باجتماعنا، كما تَرَوْن، معكم إنما نجرى على سنة المسلمين الأوائل، إذ كان الرجال والنساء يجتمعون للاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (أو شيئا بهذا المعنى).

وبعد الأحاديث جاؤوا ببعض الأولاد والبنات، فكان الحاج يوسف إمبو (وهو موظف بوزارة الزراعة ويحفِّظ هؤلاء الأولاد والبنات القرآن الكريم) يأمر كل ولد أو بنت بأن تقرأ هذه السورة أو تلك، فبعضهم كان يقرأ ببطء، وبعضهم كان يقرأ بسرعة (الولد الذى قرأ سورة "نجم" لم أتابع كلمة مما قال بعد الآيات الأربع الأولى تقريبا، إلى أن فوجئت به يقول: "فاسجدوا لله واعبدوا". قلت لنفسى: ربما كان فى هذا بعض التفسير لسرعتهم فى قراءة الفاتحة والتشهد). وبعضهم كان هائبا الموقف، وبعضهم كان واثقا (ظهر بعد ذلك أن الولد الواثق بنفسه، وكان يجلس مجعوصا على الكرسى ويهزه ويهتز معه إلى الأمام وإلى الخلف، هو ابن الحاج يوسف نفسه). وقد أعطيت الولدين الأولين دالاسيا لكل منهما (الفَكَّة التى كانت معى). وفعل نفس الشىء أحد أعضاء الجمعية. ورأيت سيدة من جمع النساء تعطى الولد الأول ورقة أظنها من فئة الخمسة دالاسيات.

وقد أَرَوْنا الألواح التى يحفظ الأولاد والبنات القرآن فيها. ويبدو أنهم لا يأخذونها معهم إلى البيت، فقد وجدناها مرصوصة أمام وجوار بعضها البعض واقفة فى وضع رأسى فى آخر الطنف مستندة إلى الجدار، واللوح يشبه طرف المجداف الخارجى (الطرف الذى يضرب الماء). وهو ليس مطليا بأى طلاء. والأطفال

يكتبون فيما أظن بالخط المغربى (مثلا: القاف لها مثل الفاء نقطة واحدة، ولكن من تحت)، ويستعملون أقلام البسط. أما الحبر فهو مصنوع من السِّنَاج (الهباب)، صنعه الحاج يوسف بنفسه (فيما فهمت). والآن، انظروا إلى مدى الجهد الذى يجب على كل واحد من هؤلاء الأطفال بذله لكى يحفظ القرآن، الذى لا يفهم منه حرفا لأنه لا يعرف اللغة العربية. قد نختلف حول فائدة حفظ القرآن من غير فهم، ولكن ينبغى ألا يفوتنا مغزى ذلك. إنها معجزة القرآن وعبقرية اللغة العربية، هذه اللغة التى كان المجحوم زويمر (المبشر الأمريكى الوقح الذى كان يدعو إلى النصرانية فى قلب الجامع الأزهر فى أوائل هذا القرن فيما قرأت) يتغنى بجمالها وعبقريتها ويتمنى أن لو أصبحت لغة نصرانية وأصبحت مكة عاصمة العالم النصرانى (انظروا إلى ابن الكلب وتخريفاته. بَقَى يا ابن الإيه، نحن نأمل أن نفتح بلادكم وأنت تتمنى أن تأخذ منا مكة مرة واحدة؟ إنى أراه الآن بعين خيالى وهم يقلبونه "على السَّفُّود" فى جهنم. سفود ربانى معتبر، وليس سفود المرحوم الرافعى).

ملاحظة أخيرة فيما يخص هذه الدعوة. لاحظت أن إحدى النساء الموجودات بالبيت، وكانت تشترك فى توزيع الطعام (ولكن ليس علينا، بل على الذين بالخارج، حينما كنا لا نزال بالداخل)، كان لا يستر نصفهما الأعلى إلا دعامة صدر من قماش أبيض. هذه ملاحظة أسجلها من باب الأمانة العلمية ليس إلا. وأمرى، عندما أعود إلى مصر وأراك وتَرَيْنَنِى، لله.

رأيت منذ يوم أو يومين فراشة فى بانجول كفراشاتنا البنية المزركشة فى مصر، فراشة واحدة لم أر غيرها. اليوم كنت أبحث عن ليمون بعد أن عدت من السوق فقال محمد: إنه سيذهب إلى امرأة فى الشارع الذى خلف الفندق ليسألها عن ليمون. ذهبنا، فإذا به يقف عند سيدة كانت تملأ دلوها من الحنفية التى بالشارع، ويكلمها بلغتهم. وسمعت كلمة "يايا" ففهمت أنها تسأله عن "يحيى" (الذى ينادينى بـ"أستاز" (بالزاى كما ترين)، واضعا النبر فوق المقطع الأول. فلما علم أنى دكتور قال لى: لقد كنت أظنك "أستاز". قلت له: لا يهم. ابق على ندائك لى كما كنت تنادينى". و"أستاذ" هو لقب مدرس العربى والتربية الإسلامية. وعندما امتلأ الدلو دخلتْ إلى الفناء الذى يضم عدة بيوت من بينها بيتها. وكان فى أقصاه شجرة ليمون فراحت تهزها حتى تساقط منها عشر ليمونات كبيرة جمعتْها ثم ناولتْها لى. وأَبَتْ كل الإباء أن تأخذ منى شيئا فى مقابلها. قلت لنفسى ونحن راجعان إلى الفندق: لقد أكرمتنى جامبيا اليوم مرتين: مرة من خلال الطبيب، ومرة من خلال هذه السيدة (ذكرت لى وهى تعطينا الليمون أنها تخرجت من المدرسة

الإسلامية العليا، التى نلقى فيها محاضراتنا على الأساتذة الجامبيين. وقد خمنتْ أننى أشتغل هناك)، فعلىَّ أنا أيضا أن أكرم محمدا، فأعطيته الورقة فئة الخمسة دالاسيات التى كانت معى، فأخذها شاكرا. وقال إنه كان ينتظر صاحب الفندق ليأخذ منه عشرة دالاسيات. قلت لنفسى: الحمد لله. لقد حل نصف المشكلة إذن.

جامبيا بلد صغير، مثل هولندة فى أوربا (وهذه المقارنة للسيدة الهولندية). وتعداد سكانها حوالى ثلاثة أرباع المليون. والسنغال تحيط بها من الشمال والشرق والجنوب، والمحيط من الغرب. الفواكه هنا تباع بالواحدة على الرصيف: المانجو والبرتقال. وهم يبيعون البرتقال مقشرا ولكن مع بقاء القشرة البيضاء الداخلية. ويبيعونه أخضر. وهو ناشفٌ ليس به ماء ومُرٌّ. ولا أدرى كيف يستطعمونه (البرتقال الذى أكلناه من حديقة الشيخ سانجالى كان كبيرا ومائلا إلى الصفرة. وكان فيه عصير. وأنا أتكلم عن البرتقال الذى كان من نصيبى). وهم هنا يأكلون الثمرة التى تستخرج منها الكولا. وهى وردية اللون صلبة مرة المذاق. وهم يقولون إنها تقوى الجسم.

ياه. لقد كتبت هذه المرة ثمانى صفحات فولسكاب. وهو أكبر خطاب حتى الآن. كتبت نصفه الأول الظهر، ونصفه الثانى قد فرغت منه فى الساعة الحادية عشرة مساء. قبلاتى، وتصبحون على خير. لم أعرف نتيجة المباراة بعد– إبراهيم.

أحبائى الثلاثة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فاليوم هو الثلاثاء ١٩٨٧/٨/١١ (أى أنه باق على مغادرتنا بانجول غد وبعد غد فقط. ونسافر من هنا يوم الجمعة إن شاء الله آخر النهار. وننام فى داكار (تانى؟ إننى أعمل لهذه الليلة حسابا من الآن، بل منذ أن علمت أن فيها مبيتا). وفى الفجر (بعد السادسة بقليل) تقلنا الطائرة الإيطالية بمشيئة الواحد الأحد إلى القاهرة عبر الدار البيضاء وروما مثلما كان الأمر فى طريق الذهاب). والساعة الآن الخامسة والربع تقريبا (عصرا). ولابد أن تكون المباراة النهائية فى دورة الألعاب الإفريقية بين مصر ولا أدرى مَنْ: مالاوى أو كينيا قد انتهت. وأرجو الله أن تكون مصر هى التى فازت. سأكون سعيدا جدا لو أننا حصلنا على المركز الأول. إن الفوز حلو!

يبدو أن للقذافى هنا شعبية، ويعده بعضهم بطلا من أبطال الإسلام، وأحد المدرسين أخبرنى أنه سمى ابنه على اسمه (لكنى لم أسأله: هل سماه "معمرا" أو "القذافى" أو الاثنين معا؟) : أخبرنى الشيخ الحامولى أن كل المساجد التى بالقرى قد بناها القذافى (هذه عبارته فيما أذكر). وعلمت أنه هو الذى بنى المدرسة الإسلامية العليا، التى تعقد فيها دورة تدريب المدرسين الجامبيين للغة العربية والتربية الإسلامية، وأنه أنفق فيها ملايين كثيرة. ولما أبديت استغرابى لضخامة المبلغ قيل لى إن هناك مبنى آخر (أو أكثر) بجانب المدرسة تابعا لها، وإنه كان فى الاتفاق أن يحول الملعب الكبير الذى أمام المدرسة إلى مسجد، وإن فلوسا كثيرة قد سرقت، واغتنى هنا عدد لا بأس به أصبحت عندهم سيارات مرسيدس، وكانوا لا يملكون من قبل شيئا. هذا ما سمعته من بعض من قابلتهم هنا أنقله كما هو، لأنى لا أملك وسيلة للتحقق من صدقه أو كذبه أو مبالغته.

كذلك قيل لى إنه كان لليبيا سفارة هنا (ولكن العلاقات قطعت معها. وكان وراء ذلك النصارى (الأوربيون فيما فهمت)، الذين كان يغيظهم أشد الغيظ صلاة الليبيين فى سفارتهم التى كانت تواجه الكاتدرائية ورفعهم أصواتهم بالتكبير وما إلى ذلك، فأوعزوا إلى الحكومة أن الليبيين يعملون على إثارة القلاقل فى البلاد وأنهم يُعِدّون لانقلاب عسكرى وأنهم هم (النصارى) سوف يعوضون الحكومة عن المساعدات الليبية إن قطعت علاقاتهم بهم. ولكنها لما فعلت لم تتلق منهم شيئا. ما مدى صحة هذه الرواية؟ الله أعلم. على كل حال فأنا رغم عدم اطمئنانى لسياسة الرئيس القذافى وأهدافه وصعوبة تصديقى

لدعوى عداوته للغرب أرى أن بناءه (بناء ليبيا طبعا، فهو لا يدفع شيئا من جيبه. إنما هو المَجَاز) للمساجد عمل يخدم الإسلام حتى ولو كان هدفه شيئا آخر. وللرسول عليه الصلاة والسلام كلمة نافذة فى هذا الصدد أذكر أنها تقول: "إن الله ليخدم هذا الدين بالبر والفاجر". بالمناسبة: صورة القذافى جالسا على كرسى ولابسا الملابس الوطنية وهو يلوح للناس (ربما إثر الغارة الأمريكية، التى يختلف الناس بشأنها ما بين مصدق وقائل إنها فرقعة إعلامية لتنظيف صورة القذافى) موجودة فى الدور الثانى بالمدرسة، على العضادة اليمنى للباب المواجه للداخل القادم من الدور الأرضى. هل يمكن أن نستخلص من وجودها هنالك (إن صحت رواية قطع العلاقات) أن فى جامبيا حرية حقيقية؟ فالمدرسة ليست صحيفة معارضة، بل هى تابعة للحكومة!

كان السوق هنا قبل العيد بأيام يشغى بالحركة والنشاط والضجة. وكنت تسمعين هناك أينما ذهبت صياح الباعة : "وَانْ تِيرْ. وان تير. وان تير. وان تير. وان تير" (بإمالة مدة التاء). ومعناها " cheap price" وكانت تأخذنا أنا ود. مرحاب الجلالة فننسى أنفسنا ونحن ماشيان ونردد نحن أيضا : "وَانْ تِيرْ. وان تير. وان تير. وان تير. وان تير"، إذ إن الكلمة لموسيقيتها وغرابتها قد أعجبتنا. ورأتنا امرأة بانجولية ونحن على هذه الحال، وكانت آتية من الاتجاه المضاد، فأعجبتها الحكاية، وأخذت تردد قبل أن تصل إلينا: "وان تير. وان تير. وان تير. وان تير. وان تير". خطر لى أن نُكَوِّن طريقة صوفية ونسميها: "الطريقة الوانتيرية". يهتز فيها الأعضاء المنتسبون إليها على نقر الدفوف وهم يتمايلون يمينا ويسارا صائحين: "وان تير. وان تير"، بادئين كما هو الحال فى مثل هذه الحضرة بداية هادئة بطيئة، ثم يسرع الإيقاع قليلا قليلا حتى يصل إلى ذروته، فيقفز فى الهواء منهم من يقفز، وينبطح منهم على الأرض من ينبطح، ويذهب فريق ثالث فى غيبوبة يشاهد فيها من أصناف البضائع المُوَنْتَرَة (اسم مفعول من الفعل "وَنْتَرَ" على وزن "فَعْلَلَ" مثل "دَحْرَجَ"، الذى اشتققناه من عبارة الباعة) ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرعلى قلب بشر. ولكن للأسف لما انفض العيد وذهبت إلى السوق بعد ذلك لم أسمع هذا الصياح الساحر، فعدت حزينا وأنا أقول: يا خسارة! إنهم لم يعودوا "يُوَنْتِرُون".

أحد الباعة الصغار (تحت البواكى حيث البنوك البشرية المتنقلة، بنوك تغيير العملة) قال لى: إن الناس هنا يحبونك. فاستغربت وسألت عن سر ذلك، وأنا الذى لا يعرفنى أحد هنا. قال: لأنك دائما تقف معهم وتكلمهم وتضحك. قلت: سبحان الله! اللهم إن هذا مكسب كبير لا يحتاج إلى أى رأس مال. ومع

ذلك فلولا أن الناس هنا لطاف يستأهلون الحب ما وجدت لدىَّ رغبة فى الوقوف والحديث معهم. ثم لا تَنْسَىِ الكرة، جازاها الله! إن هؤلاء الشبان هم مصدر معلوماتى عن دورة الألعاب الإفريقية، التى لا يهتم أحد هنا بها إلا بمبارايات كرة القدم وحدها تقريبا.

توقفت هنا أمس. واليوم الأربعاء ١٩٨٧/٨/١٢م. والساعة الآن الثامنة إلا الثلث صباحا. وقد أخذت حمام الصباح (الحمامات هنا لا تنتهى بسبب الحر والرطوبة والعرق الغزير الذى يهطل من مسام الجسم المفتوحة كعيون النوافير. وسأذهب بعد قليل إلى المدرسة. وبالنسبة للمباراة علمت أنها لم تكن أمس بل هى اليوم).

تذكرت الآن شيئا. لقد قلت مرة إن المستنقعات التى تتكاثف فيها الأشجار فى الطريق من بانجول إلى سيريكوندا لا يمكن المشى فيها، وإلا غاص فيها الإنسان فى الطين. يبدو أننى أخطأت، لأن التربة، كما قلت أكثر من مرة رملية، ولأنى رأيت بعد ذلك بضع نساء يمشين على سطح الماء فى هذه المستنقعات. طبعا، لم يكن يمشين على سطح الماء. ولم تنخرق لهن قوانين الكون. كل ما فى الأمر أن الماء كان من الضحالة بحيث يبدون وكأنهن ماشيات على سطح الماء. الشاهد أنهن لم يَغُصْنَ.

الناس هنا ينسبون أنفسهم إلى القبيلة التى انحدروا منها، فهذا من الفولا، وذاك من الماندنكا... وهكذا. وما أكثر ما تسمعين الواحد منهم يقول عن إنسان آخر: "إنه أخى" ثم يتضح بعد ذلك أنه لا يعدو أن يكون من نفس القبيلة. ولكل قبيلة لغتها. وهذه القبائل، فيما فهمت، ليست محصورة بحدود الدول، بل تجدين القبيلة منتشرة فى أكثر من دولة. والتعصب القبلى، فيما يبدو لى وفيما سمعت، شديد. كأننا ناقصون تعصبا قبليا!

وجامبيا بلد مفتوح، ويمكن أى إنسان أن يأتى ويستوطنها ويعمل ما يستطيع. وهنا غينيون وسيراليونيون كثيرون وموريتانيون منتشرون فى كل مكان، وكذلك لبنانيون. وللبنانيين والمورتيانيين سطوة اقتصادية كبيرة. وقد سمعت ممن يعرفون البلاد أفضل منى أن الجامبيين ينظرون إلى هؤلاء على أنهم يأخذون خيرات بلادهم، وأنهم مرة (أو مرتين) قد ثاروا وأحرقوا السوق، وضاعت فى هذه الحرائق ملايين الدالاسيات.

وقد سألت أحد الجامبيين البارحة: ألا توجد سفارة لأيه دولة عربية فى بانجول؟ فقال: فى داكار. والذى أعرفه أن هناك نوع اتحاد بين السنغال وجامبيا، وهم يسمون البلدين فى هذه الحالة: "سِنِجامبيا: Senegambia" والذى أعرفه أيضا أن لمنظمة التحرير سفارة فى جامبيا. أقصد أن هذا ما سمعته من بعض المصريين هنا.

أما بالنسبة للأساتذة التى ندرّس لهم فقد اكتشفت من خلال تصحيحى لموضوع تعبير كلفتُهم أن يكتبوه (بعد أن شرحت لهم طريقة تدريس التعبير) أن بعضهم يخطىء فيكتب بعض الحروف كما ينطقها خطأ، أى أنه لا يكتفى بنطقها خطأ، بل يزيد فيكتبها كما نطقها. فمثلا بعضهم يكتب "الاطلاح" (يقصد "الاطلاع) أو "السجرة" (بدل "الشجرة")... وهكذا. كما أن كثيرا منهم يخطىء فى استعمال "ال"، فيحذفها فى المواضع التى يحب أن تثبت فيها، أو العكس. ومن الأول قول بعضهم: "إمام مالك" و"إمام الشافعى" مثلا. ومن الثانى : "يا الدكتور إبراهيم" أو "الدين الإسلام" (يقصد "دين الإسلام". كذلك يخطىء بعضهم فيؤنث المذكر أو يعكس الأمر. فيقول: "الدين الإسلامية" و" الحرباء يتلون ليصل إلى هدفه") ومن الناحية الإملائية وجدت بعضهم يقسم أحيانا الكلمة التى فى آخر السطر إذا لم يستطع السطر استيعابها فيكتب نصفها، ويرحّل النصف الثانى إلى أول السطر التالى. ومعظمهم يكتب كلمات مثل "ذلك" و"كذلك" بالألف. وبعضهم يكتب بالخط المغربى. ومع ذلك كله فهؤلاء هم عُمُد الإسلام هنا، ولابد من تشجيعهم. ومما لا شك فيه أن هذه الدورة قد رفعت روحهم المعنوية، وبخاصة أنها أول دورة يأخذون فيها مكافأة. ومن المؤكد أن المنظمة تستطيع أن تفيدهم أكثر (وهى قادرة على ذلك بمشيئة الله) لو زادت الكتب التى تعطيها لهم وجعلت من بينها قاموسا عربيا- عربيا عصريا لكل واحد منهم. كذلك يا حبذا لو وزعت على كل منهم عدة أشرطة مسجل عليها نطق الحروف العربية والنحو والصرف العربى وبعض سور القرآن الكريم. إن الكتب العربية (والكتب عموما) هنا قليلة وغالية، ومن هنا فإن ما تفعله المنظمة فى هذا السبيل ستكون له فوائد عظيمة (توقفتُ هنا).

نفس اليوم الساعة الحادية عشرة مساء: فى الفترة الأخيرة أحس بأبخرة تتصاعد من أعماق نفسى وتتكاثف فى سمائها وتريد أن تنزل مطرا من عينى تغسل عنى، كما هو حالى الذين تعرفين بين الحين والآخر، ما علق بها من أوضار الحياة. كنت منذ عدة أيام فى المسجد، فصليت المغرب واستندت إلى عمود

قرب الركن الخلفى الأيمن فى الظلام (ذلك أنهم يطفئون أنوار المسجد إلى وقت العشاء). وأخذت أنصت إلى صلاة المشايخ والرجال والصبيان الذين يتحلقون كل ليلة فى هذا الوقت يصلون على النبى ويوحدون الله بلسانهم الألكن. قلت إن محمد بن عبد الله قد رحل عن دنيانا منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، وها هو ذا اسمه يردده هؤلاء الناس الذين لا ينتمون إليه عرقيا ولا يتكلمون لغته، وبينهم وبين بلاده آلاف الأميال والصحارى والأنهار والبحار، ويرددون مع اسمه كلمة التوحيد التى أعلنها مجلجلة منذ أول يوم. وجاشت عيناى بالدموع، ولكن استبطانى لمشاعرى، وأنا جالس فى الظلام مضعضع الجسم والنفس، منع هذه الدموع من الهطول. وأمس كنت عند الغروب جالسا عند المحيط قريبا من حافة الماء. وكان الموج يهجم ناحيتى ثم يرتد، فأرفع قدمى محاولا أن أحفظ توازنى على قطعة الخشب التى أجلس عليها، ثم أنزلها كرة أخرى. وكان النسيم عليلا منعشا. وكنت وحدى على الشاطىء والمحيط كله أمامى، لى لا يشاركنى فيه أحد. وخطرت ببالى رغبة: أن تظل النسمة تهب على فتطيرنى ذرة بعد ذرة فى الفضاء الرحيب، حتى إذا ما أوشك نور الصباح أن ينبلج طيَّر النسيم آخر ذرة فى جسدى، فلم يعد منى إلا شبشبى ليقول الناس حين يرونه إنه "كان ها هنا إنسان"! ما هذه الأحزان المتداخلة؟ أحزان من الماضى البعيد وأحزان كونية عامة وأحزان لما أحسه من ضعف جسمى ونفسى أمام فيروس الكحة اللعين. إنها دار أحزان، هذه الدنيا.

آسف، لا أريد أن أحزنكم معى. كيف حال الفراشة ذات الأجنحة الزاهية التى هى أرق من خدود الورد؟ كيف حال الأسد الصغير،حبيب باباه، الذى لا يشبع من تقبيله. كيف حالك أنت يا زوجتى؟ زوجك كان مريضا، ومازالت به بقايا من بقاياه (من بقايا المرض، أعنى). باقٍ يوم، وبعده تبدأ رحلة العودة، حفظكم الله لى سالمين متمتعين بالصحة والسعادة- إبراهيم

ملاحظة: فازت مصر على كينيا وأحرزت البطولة، وأنا سعيد وأشكر الله وأحمد فضله.

زوجتى العزيزة، يمنى أحلى عروس فى الدنيا كلها، علاء الدين أرجل ولد فى العالم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

الساعة الآن الثامنة والنصف وخمس دقائق مساء يوم الجمعة ١٤/٨/١٩٨٧م. وأنا أكتب إليكم من مطار بانجول. وهو مطار صغير ليس فيه إلا مكتبان اثنان فقط للطيران، وكل منهما حجرة صغيرة. وأمامى إلى اليسار شباك "بنك جامبيا للتجارة والتنمية"، وإلى جواره من جهتى مكتب بريد صغير أيضا، ثم أمامى مباشرة دورة مياه. أما صالة الانتظار التى أجلس فيها الآن فهى لا تزيد فى الطول عن طول عمارتنا (مدخل ٢) وعرضها ستة أمتار تقريبا. وليس هناك من المسافرين أزيد من عدد أصابع اليد الواحدة. وقد كان ميعاد الطائرة النيجيرية التى ستحملنى من هنا إلى داكار (وهى نفس الطائرة التى أحضرتنى من هناك إلى هنا) السابعة إلا ربعا. ولكنهم أخبرونا أنهم تلقوا اتصالا من لاجوس يقول إنها ستصل بعد منتصف الليل بنصف ساعة.

بينى وبينك لقد سُرِرْتُ لذلك، واعتبرته استجابة لدعوتى التى دعوتها صباح اليوم فى المدرسة أمام زملائى، الذين ضحكوا كثيرا عندما رفعت يدى إلى السماء وقلت: اللهم أَخِّر الطائرة النيجيرية! ذلك أنى لا أحب أن أقضى ليلة فى داكار فى فندق حقير وأدفع فيها مائة جنية أو يزيد. يكفى الثلاثون جنيها التى دفعناها للتاكسى من بانجول إلى المطار لمسافة لا تزيد عن خمسة وعشرين كيلومترا، وكذلك الخمسة والعشرون جنيها الأخرى، رسوم مغادرة مطار بانجول، الذى لمحطة أوتوبيس قريتى هيبةٌ أكبر منه. وقد ذكر لى الشيخ الحامولى، الذى جاء معى مشكورا هو وأحد تلامذته المساكين ولم يتركنى إلا بعد المغرب، خوفا من أن يفوتهما الأوتوبيس (يتعين عليهما أن يمشيا أكثر من كيلو مترين داخل سور المطار قبل أن يصلا إلى الطريق العام، الذى يستطيعان أن يأخذا منه الأوتوبيس إلى بانجول. كان الله معهما وجزاهما خيرالجزاء من أجل هذه التوصيلة)، أن الكويت هى التى بنت هذا المطار، وأن السعودية قد كلفت شركة ألمانية بدق طلمبات مياه ذات قوة ضخ عالية فى القرى خدمة لأهل جامبيا ليشربوا منها بدلا من الآبار التى كانوا يحفرونها، ويمتحون منها الماء بأكياس من البلاستك (هذا ما رأيته فى الريف أكثر من مرة بعينى، ولا أدرى لِمَ لَمْ أرهم يستعملون الدلاء)، وأنهم يتلقون معونات كثيرة من الدول العربية الغنية، وأن الأزهر يرسل إليهم أطنانا من الكتب، ولكنى فهمت أن كبار المسؤولين، بما فيهم أكبر رأس، يستولون على معظم هذه

الإعانات، وأن الكتب مثلا لا تصل للطلبة، بل تُحَوَّل إلى السنغال وتباع هناك لحساب هؤلاء المسؤولين، وأن كل من يعرف كلمة عربية هنا يريد أن يحصل على منحة دراسية من الأزهر أو من أى جامعة عربية أخرى، وأن كثيرا من هذه النسخ تأتى إلى الطلبة الجامبيين، ولكن المسؤولين يأخذون منهم حق التذكرة مع أنها داخلة فى المنحة. كذلك فقد علمت أن كثيرا من الناس هنا يفعلون ما يفعله الباكستانيون فى بريطانيا من متاجرة بحكاية فتح المدارس العربية.

سأقطع ما أنا مسترسل فيه الآن وأصف لك المرأة الجامبية التى كانت تجلس على مقربة منى (على يسارى، وبينى وبينها رجل سنغالى كنت أتكلم منه قبل قليل بالفرنسية وبين كل منا والآخر نحن الثلاثة كرسىٌّ فاضٍ). وفجأة قامت وجاءت عن يمينى ووقفت أمام ما كان مفروضا أن يكون حوض زهور، وألقت بسبحتها على الأرض، وتهيأت للصلاة. وكانت ذراعاها عاريتين (الجو الآن حار قليلا)، ففردت خمارها بحيث يغطى شعرها وذراعيها، اللتين تبدوان كلتاهما عاريتين تماما أحيانا. وقد لاحظت أنها لا تجلس بين كل سجدتين، بل ترفع رأسها قليلا ثم تسجد السجدة الثانية. بل إنى لاحظت أيضا أنها لا تركع. لا أدرى هل أنبهها أم لا (أراك تقولين: وما دخلك أنت؟ وهل أنت مكلف بهداية الناس؟ خلاص يا ستى. تعالَىْ أنت ونبهيها لخطئها). التفتُّ إلى جارى السنغالى وكلمته فى هذا بالفرنسية، فضحك.

سأكلمك فى شىء آخر حتى تفرغ من تسبيحاتها وصلاتها على النبى. لقد صليتُ قبل قليلٍ المغرب والعشاء جمع تقديم وقصرا. وكان ذلك أمام المطار بجوار صنبور ماء وتحت بضع أشجار. ذكرنى ذلك بطيارة الحاج عبد أبو صيرة والطلمبة التى عندها. وكان هناك رجل جالس على دكة من الصاج خلف الكرتونة المفروشة للصلاة. وقد لاحظت أنه لا يستقر فى مكان، فسألته عن السبب، فقال: إنه البعوض اللعين. قلت له: غريبة. إننى لم أحس بشىء وأنا أصلى. وهأنذا جالس إلى جوارك ولا شىء يلسعنى. قال: ربما وضعتَ مادة كيماوية فوق جلدك. قلت له: أبدا، لم أضع أى شىء فوق جلدى . ويمكنك أن تتحقق من هذا بنفسك. قال: ربما لأن جلدى داكن. قلت له: لا أظن. بل أظن أن السبب هو أننى مصرى. قال: آه، من عند الأماكن المقدسة. فضحكت قائلا: لا لا، بل لأن كلمة مصرى "Egyptian" تبدأ بحرف الـE، وهو حرف مبارك. فلم يقتنع (ولا أنا أيضا)، فقلت له: ربما لأن طعم دمك حلو. والبعوض مثل الأطفال يحب مص المشروبات المسكرة.

صوت المصحف المرتل يصل إلىّ من إحدى الحجرات التى على شِمَالنا: لا أدرى من مكتب الهجرة أم من مكتب شركة الطيران الجامبية: "وأما إن كان من أصحاب اليمين* فسلامٌ لك من أصحاب اليمين" صدق الله العظيم. سورة الواقعة، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد. سبحان الله! وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين. ترى لو لم يدعُ محمد بن عبد الله بدعوته فى مكة قبل أكثر من أربعة عشر قرنا أكان صوت الشيخ عبد الباسط يسمع هنا؟ أكنت أشغل نفسى بهذه المرأة؟ أكنت أنت ستقولين لى: وأنت مالك؟ ثم أكنت أنا إليك حول هذا الموضوع؟

المهم، فى هذه "الدُّوكَة" كانت السيدة قد فرغت من صلاتها، وحدثتُها (معلهش. سماح المرة دى، ولا أعود لمثلها أبدا!). ويبدو أنها لم تفهمنى، إذ إنها غير متعلمة فيما يخيل لى، فهى لا تتقن الإنجليزية (أو ربما أنا غير المتعلم)، فاستعنت بالسنغالى، الذى شرحت له الأمر بالفرنسية (على قدر ما استطعت)، وشرحه هو لها باللغة المحلية. وأرحت ضميرى والحمد لله، وأتعبت ضميرك، والحمد لله أيضا!

بالمناسبة لا أظن ان هناك غيرنا نحن الثلاثة: هما منهمكان فى الحديث، وهو يدخن، وبنت هذه السيدة (وهى أصغر منى) زائد شاب جامبى رأيته قبل المغرب فى هذا المكان، وأخبرنى أنه مسافر معنا على نفس الطائرة، ولا أدرى أين ذهب. ألم أقل لك؟ إن التاكسيات أو الأوتوبيس فى قريتى أكثر من مطار بانجول نشاطا.

الساعة الآن التاسعة والنصف، والجو حار قليلا، وأنا عرقان، ولكن لا كعرق بانجول الذى يسح من المسام المفتوحة على آخرها ؟

عود إلى الشيخ حامولى: لا أدرى هل قلت لكم إنه يعرف بعضا من المدرسين من أهل قريتى من زملاء الصبا. وقد ذكر لى أنه سمع بى كثيرا من أحدهم (الشيخ الشوادفى الملاح). قلت له أليس عجيبا أن تسمع بى فى مصر ولا ترانى إلا فى بانجول؟ ولكنها إحدى عجائب الإسلام المذهلة. لقد زار الرجل قريتنا، ومع ذلك لم نتقابل هناك بل هنا. ولقد دعانى الرجل إلى الغَدَاء فى الأيام الثلاثة الأخيرة (من جانبى حاولت أن أعبر له عن تقديرى لاهتمامه بدعوتى إلى بيته كما يفعل الضيف المقدر للجميل. ولكن فليكافئه الله بنفسه، فإن يده أسبق إلى الخير. أعاده الله هو وأسرته سالمين غانمين إلى مصر بمشيئة الله).

قابلت فى الفندق قبل ثلاث ليال صحفيا لبنانيا اسمه أمين جابر. ذكر لى أنه كان يشتغل بمجلة "الشبكة" ويحرر "صواريخ"، وأطلعنى على بعض أسرار هذه المهنة، وكيف كانت المجلة تحصل على أموال الفنانين والفنانات وعشاقهن عن طريق دس الهمزات والغمزات فى الأخبار التى تنشرها عنهم. كما أخبرنى بأنه كان صديقا لعبد الحليم وبليغ حمدى ومحمد حمزة وحسن يوسف. وقد سألته عن سر ترك "شمس البارودى" لعالم الفن والأضواء إلى شغل البيت وعبادة الله، فقال إنها رأت السيدة زينب فى المنام. وأكد لى أن هذا صحيح وليس دعاية. هذا ما قاله، وقد عرفت منه أنه يشتغل الآن فى صحيفة "العالم العربى" اللبنانية (لست متأكدا هل هذا اسم الصحيفة) وأنه مكلف بتغطية أخبار هذا الجزء من العالم.

اليوم تركت الفندق فقال الحاج وتشيبى (عاملان بالفندق: شاب وشابة. هو أعزب، وهى متزوجة): سوف نفتقدك كثيرا. قلت له: يا خسارة لن يكون ثمة "أستاذ" بعد اليوم (أقصد نفسى)، ولن يكون ثمة فلم ستار (نجم سينمائى: star film) بعد اليوم أيضا (أقصده هو)، والحقيقة أننى منذ أن رأيته بالبيريه الأحمر والنظارة السوداء الغامضة والبنطلون الكاوبوى وأنا أقول له: " You are not a waiter. You are a film star". ودائما أقول له: إن مكانك ليس هنا. أنت مكانك فى هوليود حيث سيتخطفك مخرجو ومنتجو السينما العالمية، ولكن لا بد أن تصلى (لا أدرى كيف يمكن أن يكون نجما فى هوليود ويصلى بصلاة المسلمين، أو حتى بصلاة النصارى). اذهب إلى الولايات المتحدة، وهناك ستزيح تشارز برونسون وغير تشارلز برونسون وتأخذ أماكنهم. وهذا الكلام يعجبه، وإن كان قد اتضح لى أنه لا يعرف تشارلز برونسون! (يا للهول! وهل يجهل أحد تشارلز برونسون؟ وكيف يدخل الجنة إذن؟). وأحيانا أشرح الأمر لزملائه فأقول: إنه كان ذات ليلة يغنى فى التليفزيون ويمثل، ثم بدا له أن يقفز من الشاشة ويجلس بينكم. ومن يومها وهو لا يستطيع الرجوع. ومن يومها وهو نادم. ثم أقول له: اسمع. سوف ترجع إلى مكانك على الشاشة مرة أخرى. وستستطيع أن تخرج ذراعك خلسة وتضرب صاحب الفندق على مؤخرة رأسه ثم تعيدها ثانية فلا يعرف مَنْ ضَرَبَه. وهذا الكلام يسره جدا لأنهم دائما يرددون أن صاحب الفندق جاهل، وأنه لا يشغله إلا المال، وإن كانوا يقولون أيضا إنه طيب ويعرف ربه.

أسمع من مكانى هنا بالمطار خبطات قشاط الطاولة. ألم أقل لكِ؟ إن كل شىء هنا يذكرنى بمحطة التاكسيات فى القرية. لم يبق إلا أن يصل إلى سمعى صوت عم إبراهيم قنديل وهو يحمل صينية الشاى بيديه عالية فى الهواء صائحا: أيوه جاى!

والآن أترككم لأخرج فأشم نسمة هواء أمام باب المطار وأرى الذين يلعبون الطاولة، وقد أجد عم إبراهيم قنديل هناك، وأكتشف أنى فى قريتى وأنى لم أعد فى بانجول كما كنت أتوهم. ربما جاءت الطائرة وحملونى إليها وأنا نائم، ووصلت القاهرة، ومن هناك حملتنى إلى القرية، كل ذلك وأنا غير متنبّه! ربما!

قبلاتى لحبيبتى يمنى ولصديقى ("my sadiki" كما أسميه) علاء الدين. لعلكم جميعا بخير. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته– إبراهيم (الساعة الآن العاشرة).